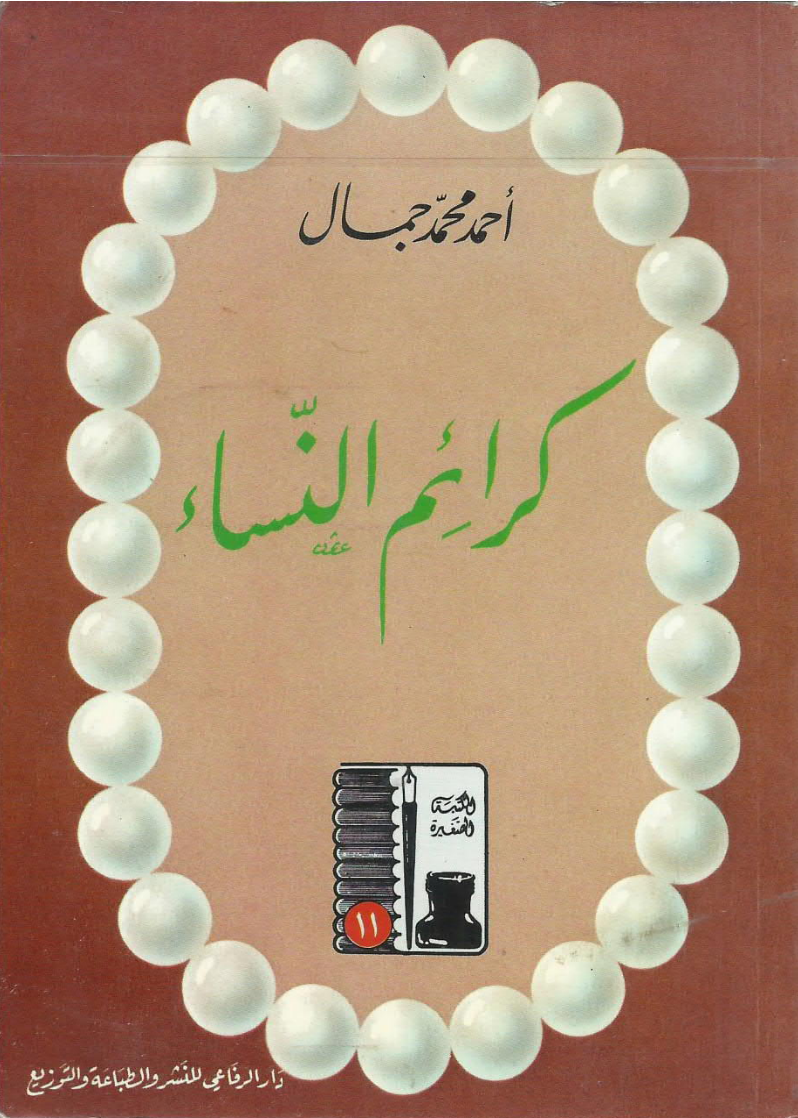
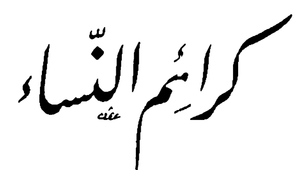


أحمد محمّد جمال
كرائم النّساء
المكتبة الصغيرة
١١
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع


کرائم النساء

المكتبة الصغيرة

(١١)

كرائم النساء

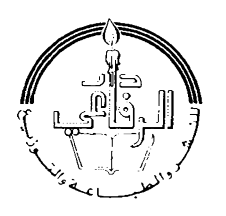
(أمثلة روائع .. من أمجاد الأمومة البرة، والأنوثة الثرة .. في حضارة الإسلام وتاريخ المسلمين)

أحمد محمد جمال



دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض

الطبعة الأولى محرّم ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م
الطبعة الثانية محرّم ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م
الطبعة الثالثة محرّم ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الرابعة رجب ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م



منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
ص. ب: ١٥٩٠ - الرياض ١١٤٤١ - تليفون: ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس: ٤٠١٣٦٧ (الفرات) - فاكسميلي: ٤٧٩٤٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنما النساء شقائق الرجال»

حديث نبوي

الموضوعات

كلمة المكتبة الصغيرة

ما حرصت من قبل، على أن يكون للمكتبة الصغيرة، كلمة بين يدي كتيب من كتيباتها مثلما حرصت هذه المرة على أن يكون لها ذلك بين يدي هذا الكتاب.. فإن مساهمة أخي الأستاذ (أحمد محمد جمال) في هذه السلسلة حدث جدير أن لا أتركه دونما تعليق.. وإني لأحب أن أسمي هذه الكلمة تعليقاً لا تقديماً.. فإن اسم الأستاذ أحمد جمال أكبر من أن أعرّفه لقارىء ما.. داخل المملكة أو خارجها.. إن في نفسي رغبة أقوى من أن أدافعها تحضّني أن أتحدث عن هذا الكاتب الذي أصبح ملء أسماع الناس وملء أبصارهم.. حتى لأصبحت كتاباته الإسلامية الواعية الهادفة تستقطب إعجاب القراء في كل مكان! فلعلي بهذا الحديث أكشف جوانب من حياته ربما لم تكشف من قبل.. أقول ربما فقط.. ذلك أنني عشت وأخي أحمد جمال تاريخاً مشتركاً.. بدأ بصبيين صغيرين درجا على أن يذهبا إلى مدرسة واحدة منذ صباهما الباكر. يجلسان إلى مقاعد متجاورة في فصل واحد،

ويقطعان وقت المدرسة متقاربين متفاهمين.. ثم ينصرفان معاً.. فيقطعان طريقاً واحداً.. ثم يعودان ليجتمعا في عصر كل يوم، متى كان ذلك ممكناً، في المسجد الحرام أو في طريقهما إلى نزهتهما المفضلة في حدائق المسفلة بمكة المكرمة.. وقد ظلا كذلك.. يقطعان مراحل من الدراسة معاً.. ثم تخرجا.. ولكنهما عادا ليعملا معاً في جريدة البلاد السعودية (البلاد الآن) محررَيْن متلازمَيْن.. تقرِّب بين أفكارهما أهداف واحدة، فإن اختلفا - وطالما اختلفا - فإلى نقطة لقاء واحدة فإن بينهما أشياء كثيرة مشتركة عملت على توحيد أهدافهما وتقريب مشاربهما..

وقد ظلا كذلك وإن بعدت ظروف لقائهما.. بعد أن انتقلت أنا بحكم عملي إلى الرياض.. وظلّ أخي بحكم عمله في مكة المكرمة.. ولكننا لا نزال على عهد الوفاء والإخاء وظل لنا لقاؤنا الفكري المشترك.

الذي يهمني أن أقوله.. أنني عرفت أخي أحمد معرفة الصديق اللصيق الذي ربما عرف من أخيه ما لم يعرف الأخ الشقيق.. عرفته في جده ولهوه.. وفي رضاه وغضبه.. في علانيته وسره.. فوجدته في كل أحواله متصل الأسباب.. بِدِينه.. وثيق الارتباط به.. محتفظاً بأخلاق المسلم الحق..!

لذلك لم يكن غريباً عليه مطلقاً، أن يلتزم إسلاميته في كل تصرفاته، وأن يصدر عنها فيما يصدر.. حتى لغدا هذا الكاتب

الإسلامي الكبير، يطلق الكلمة من قلبه المؤمن، لتصل إلى أعماق القلوب المؤمنة. . !

كان نجاحه بالنسبة إليّ. . هو النتيجة الحتمية التي دلّت عليها مقدمات واضحة. . كما كان نجاحه نجاحاً بالنسبة لجيلنا المشترك. ومن هنا. . كان اعتزازي كبيراً بهذا الكتيب الذي خص أخي الأستاذ أحمد جمال، (المكتبة الصغيرة) به كدليل على صداقته لهذه المكتبة يمدّ به من رباط صداقتنا الوطيدة أمد الله رواقها ما دامت الحياة. . وأمد في عمره مباركاً طيباً مثمراً خير الثمار. .

وكلمة أخيرة أحب أن أقولها للقارئات من جمهور (المكتبة الصغيرة) هي أن هذا الكتاب يعتبر الكتاب الثاني منها الموجه، بصفة خاصة إلى المرأة المسلمة، أما الأول فكان كتيب (أم عمارة).

ومن الله أستمد التوفيق والعون.

الرياض في ٢٧/ ٤/ ١٣٩٣ هـ

عبد العزيز الرفاعي

المقدمة

تحدثت كثيراً عن (المرأة): أصدرت - في عام ١٣٨٤ هـ - كتابي (مكانك تحمدي) ثم أصدرت قبل أربع سنوات كتيبا عن (المرأة في التشريع الإسلامي).. هذا إلى جانب مقالاتي المتعددة في المجلات والصحف داخل بلادي وخارجها. وكان غرضي أن أعود بالمرأة المسلمة إلى حماها المنيع الذي صانها الإسلام به حين منحها حقوقاً لم تكن لغيرها، وألزمها واجبات تفرضها عليها طبيعتها كأنثى خلقت بغرائز وخصائص ليس للرجال مثلها.

وهذه (النماذج) النسائية التي أقدّمها في هذا الكتيِّب: إنما هي شواهد على حقيقة مكانة المرأة في الحضارة الإسلامية، وهي - في نظري - ليست كافية للتدليل والتمثيل. ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. وأرجو أن أجد فسحة من الوقت لأقدّم مزيداً من كرائم النساء المسلمات.

* * *

وأكتفي هنا - لئلا أطيل الحديث أو أكرره عن (المرأة) وموقف الإسلام منها - بنقل آراء نساء من أوروبا وأمريكا هُدين إلى الإسلام اقتناعاً بعدالته وكرامته:

● تقول أستان رايتنس: (لقد وجدت في الإسلام الطمأنينة التي بحثت عنها.. إن الإسلام قد منح المرأة مركزاً مرموقاً بينما هي في الأديان الأخرى أمَة، لا حق لها).

● وتقول أنى بيزانت: (إن المرأة في ظل الإسلام أكثر حرية منها في ظل المذاهب الأخرى، فالإسلام يحمي حقوق المرأة أكثر من المسيحية.. فبينما لم تنل المرأة في إنجلترا حق الملكية إلا منذ عشرين سنة فإن الإسلام قد أعطاها حق التملك منذ اللحظة الأولى).

● وتقول إيفلين كوبلد: (إن الإسلام أكثر الأديان طواعية وعملية وقرباً إلى العقل، وهو الدين الوحيد الذي يبلغ بالإنسانية كل ما تنشده من طمأنينة وسلام).

وغيرهن كثيرات.. أحيل القراء ـ والقارئات خاصة ـ إلى كتابي (مفتريات على الإسلام) ص/ ٨٥ وما بعدها ثم ص ٣٢٥ وما بعدها، ليقرأوا ويقرأن المزيد من آراء النساء الأجنبيات عن عبقرية الإسلام، وموقفه العادل الفاضل، الحكيم.. من شقائق الرجال كما سمّاهن الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه.

مكة المكرمة ١/ ٤/ ١٣٩٣ هـ

أحمد محمد جمال

سَيّدة الأمهات

نبدأ الحديث عن كرائم النساء ـ بسيدة الأمهات، تلك الأم التي جادت على الإنسانية بوليدها الواحد الماجد، صاحب الرسالة الراشدة الخالدة، ورسول الحكمة والرحمة، ونبي الهدى والنور.

إنها (آمنة بنت وهب) أم محمد بن عبد الله.. الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وهدى للضالين، وخاتماً للنبيين.

وحسبها شرفاً لا ينكر، وفخراً لا ينقض: أن الله عز وجل اصطفاها أماً لأفضل رسله، وخاتم أنبيائه. وكان إبنها الواحد الماجد يتحدث عن نسبه الطاهر منها ومن أبيه، فيصدق الحديث حين يقول:

● «إن الله اختارني من كنانة، واختار كنانة من قريش، واختار قريشاً من العرب.. فأنا خيار من خيار من خيار».

● «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصطفىً مهذباً. . لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

إن آمنة بنت وهب. . لم تكن والدة رسول، ولا أم نبي فحسب. ولكنها كانت صانعة تاريخ، لأن رسالة (الإسلام) التي حملها وحيدها كانت وما تزال الرسالة الكاملة الشاملة، الراشدة الخالدة، على مر الزمان، لمصلحة الإنسان.

يقول ابن إسحاق عن آمنة بنت وهب: (كانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً).

وتتحدث الدكتورة بنت الشاطىء عنها فتقول: (تفتح صباها في أعز بيئة، وأطيب منبت، فاجتمع لها من أصالة النسب، ورفعة الحسب ما تزهو به في ذلك المجتمع الأرستقراطي، الذي يعتز بكرم الأصول، ومجد الأعراق).

(لقد كانت (آمنة): الزهرة اليانعة في قريش، وبنت سيد بني زهرة نسباً وشرفاً. وقد ظلت في خدرها محجبة عن العيون، مصونة عن الابتذال. . حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها، أو يجرأون على رسم صورتها، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها إلا أنها كانت يومئذ أفضل فتيات قريش نسباً وموضعاً كما يقول ابن إسحاق).

(ولكن شذاها العاطر كان ينبعث من دور بني زهرة، فينتشر في أرجاء مكة، ويثير أكرم الآمال في نفوس فتيانها الذين زهدوا في كثيرات سواها ابتذلتهن الألسنة والعيون).

* * *

واختار الله تبارك وتعالى (آمنة) زهرة قريش زوجاً لعبد الله ابن عبد المطلب ـ على كثرة الفتيات الصباح العفائف، اللاتي تعرضن لعبد الله يخطبنه لأنفسهن الواحدة تلو الأخرى: رقية بنت نوفل ـ وفاطمة بنت مر ـ وليلى العدوية، وغيرهن كثيرات. . . أردنه لأنفسهن، وعرضن عليه الزواج، فلم يستجب لواحدة منهن!

وانصرف عبد المطلب ـ كما يقول ابن إسحاق ـ آخذاً بيد عبد الله إثر افتدائه من الذبح، فخرج حتى أتى به (وهب بن عبد مناف بن زهرة) وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً فزوَّجه ابنته آمنة!

أجل آمنة. . التي حظيت بعبد الله بن عبد المطلب، الذي يقول عنه (بودلي) في كتابه (الرسول): (إنه كان شاباً من أجمل شباب مكة، وأكثرهم سحراً وذيوع صيت في مكة، وعندما خطب آمنة تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة من أجله).

آمنة التي انتقل إليها (النور) الذي كان يحمله عبد الله بن عبد المطلب، وكان ـ أي النور الذي أشرق في جبينه ـ مبعث الرغبة فيه ممن عرضن أنفسهن عليه من أولئك الفتيات العفائف الصباح:

● لقد قالت إحداهن (رقية بنت نوفل) بعد أن سألها عبد الله ـ وقد تزوج آمنة ـ ما لك لا تعرضين عليَّ اليوم ما كنت عرضتِه علي بالأمس؟

● قالت: (فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة)!!

● وقالت الثانية: (فاطمة بنت مر): (يا عبد الله ما أنا بصاحبة ريبة. ولكني رأيت في وجهك نوراً، فأردت أن يكون لي، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد)!

● وقالت الثالثة (ليلى العدوية) وقد سألها عبد الله: (ماذا صدها عنه بعد؟ مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت علي، ودخلت على آمنة فذهبتْ بها)!

انتقل (النور) من جبين عبد الله إلى آمنة بنت وهب ليكون نبي هذه الأمة.. بعد أن تنقل من أصلاب وأرحام طواهر حتى استقر في (آمنة) لتحمل (بمحمد) ﷺ.. محمد الذي كان:

دعوة أبيه إبراهيم، وبشرى أخيه عيسى، ورؤيا أمه آمنة.. رأت كأن نوراً يخرج منها أضاءت منه قصور الشام، وسمعت هاتفاً يهتف بها: إنك حملت بسيد هذه الأمة!!

وعندما رجعت به مرضعته حليمة السعدية خوفاً عليه قالت لها آمنة: (كلا والله.. ما للشيطان عليه من سبيل. وإن لابني لشأناً. والله ما رأيت من حمْلٍ قط أخف من حمله، ولا أيسر منه.. وقع حين ولدته واضعاً يديه على الأرض، رافعاً رأسه إلى السماء).

وقال ابن إسحاق: (كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة في كلاءة الله وحفظه.. ينبته الله نباتاً حسناً)!

* * *

.. وسافر عبد الله إلى الشام في قافلة تجارية، بعد أن قضى مع عروسه الحبيبة عشرة أيام لا تزيد.. استودعها خلالها (أمانة السماء) وكان وداع بين العروسين، حافل بالحزن والأسى، للفراق العاجل، الذي انتزع كل واحد منهما عن صاحبه على محبةٍ وشوقٍ وفرحة..

إن سعادة (آمنة) لم تكمل.. لكأن الحواسد من خاطبات عبد الله اللاتي خاب رجاؤهن فيه، قد أصبنها فلم تسعد به إلا أياماً قلائل..

وها هي الأيام تمضي، والليالي تتابع.. وينقضي الشهر، ويبدأ الثاني، وتعود القافلة، ولا يعود معها عبد الله، بل يمكث مريضاً في يثرب عند أخوال أبيه بني النجار.

ويقبل عليها أبوه عبد المطلب، وأبوها وهب.. ليهوِّنا عليها ما أصابها من شجن وحزن وقلق على زوجها الشاب الحبيب، ويَعِداها بعودته من يثرب قريباً في عافية وسلام.

وظلت آمنة في مكة، ولكن فؤادها في يثرب مع عبد الله خاشعاً ضارعاً أن يبرأ من علته، ويعود إليها من غربته، ليشاركها الفرحة بالوليد المنظور.

وكانت تعاودها ـ في فترات نومها القصيرة ـ رؤيا ملحة عن جنين عظيم.. تطويه أحشاؤها، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بُنُوَّة، حتى إذا استيقظت شق عليها ألا تجد عبد الله إلى جوارها تقص عليه رؤياها، ليسعدا معاً بالنبأ العظيم.

* * *

ويزداد بلاء (آمنة) شدةً وقسوةً، لحكمة يريدها القدر الذي اختارها لأمر خطير من دون فتيات قريش، فيكون فراق عبد الله لها فراقاً أبدياً.. لا مآب بعده، إذ يموت في يثرب ويدفن فيها، وتبكي مكة كلها لا آمنة وحدها، ولا آل عبد المطلب معها، ولا بنو هاشم وحدهم.. تبكي مكة فتاها الحبيب الوسيم الذي لم

يتجاوز عمره ثمانية عشر عاماً، ولم يمض على زواجه بآمنة إلا شهران وبضعة أيام.. قضى ثمانية أعشارها بعيداً عنها بين السفر والمرض.

وتقول العروس الأرملة: فيم كان فداؤه إذن ما دام قد كتب عليه الموت العاجل؟ وفيم كان العرس الحافل والقبر ينتظره في يثرب؟

ثم تجيب نفسها: لقد عرفت سر الذي كان.. إن عبد الله لم يفتد من الذبح إلا لمهمة عظمى ـ لقد أمهله الله ريثما يودعني هذا الجنين الذين يتقلب في أحشائي، بل هذا (النور) الذي فارق وجه عبد الله منذ زففت إليه، وقالت الفتيات اللاتي خطبنه، ثم صددن عنه: (لقد ذهبت آمنة بالنور الذي كان بين عينيه)!.

وأنزل الله سكينته على آمنة، وصبَّرها على فجيعتها في عبد الله صبراً جميلاً.

ووضعت جنينها سيد الأجنة، وسماه جده عبد المطلب (محمداً)، ووفدت عليها نساء قريش يهنئنها بالوليد السعيد، وحدثتهن بما رأت وما سمعت من بشريات عنه، عندما كانت حاملة به.

وكثر الحديث في أندية مكة عن نبي منتظر، تقارب زمانه.. يتحدث عنه الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب.

واستجيبت دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم..﴾ وتحققت بشرى عيسى عليه السلام: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وصحت رؤيا آمنة حين رأت نوراً يخرج منها أضاءت منه قصور الشام.. فكان (محمد) ابن عبد الله أفضل الرسل، وخاتم النبيين.. وكانت (آمنة): سيدة الأمهات..

لأنها أم (محمد) الذي اختاره الله رسولاً بدينه القيم، إلى الناس كافة، وإلى آخر الزمان.. يدعو إلى الحق والعدل والخير. وذلك هو (الإسلام): ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾..

* * *

قالت (آمنة) وهي تحتضر: (كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفني.. وأنا ميتة، وذكري باق، فقد تركت خيراً، وولدت طهراً).

وعن عائشة أنها قالت: (حج بنا رسول الله ﷺ حجة

الوداع، فمر على قبر أمـه وهو بـاك حزين مغتم، فبكيت لبكائه).

● ألا ما أخلد (آمنة بنت وهب)!

● وما أمجدها بأمومة (محمد) أفضل البشر، وأكمل إنسان، وأمثل رسول.

الزوجة المثلى

كانت آمنة بنت وهب بأمومتها لمحمد ﷺ سيدة الأمهات، وجاءت بعدها (خديجة بنت خويلد) لتكون بزواجها منه: خير الزوجات.

قالت نفيسة بنت منبه: أرسلتني خديجة دسيسة إلى محمد فقلت له: ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما في يدي شيء. قلت: فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟ قال: ومن؟ قلت: خديجة.. فأجاب.

وكانت (خديجة) شابة عندما ترملت بعد وفاة زوجها الأول، ذات جمال منظور، ومال موفور، ونسب ماجد، تشتغل بالتجارة، وتبعث القوافل إلى الشام لتعود بالطعام واللباس مع بعض مواليها ونفر من الرجال تستأجرهم لذلك.

وسمعت (بالأمين) فتى بني هاشم: محمد بنِ عبد الله

تتحدث قريش في مجتمعاتها وأنديتها عن صدقه وأمانته، وتثني على خلقه العظيم، فراحت تسأل عن مزيد من أنبائه حتى وثقت بفضله ونبله، فطلبته أن يمشي في عيرها إلى الشام، وأعطته أجراً مضاعفاً. وجعلت غلامها ميسرة صاحباً لـه، وأوصته أن يحفظ كل ما يرى وما يسمع عن محمد من حركاته وسكناته، وما يقوله وما يقال عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وعادت قافلة (خديجة) من الشام بتجارتها الرابحة المباركة، يرعاها محمد الأمين، ومعه غلامها ميسرة. وكان لها اهتمام بأخباره يفوق اهتمامها بالتجارة، لذلك جعلت تسأل ميسرة، وراح ميسرة يخبرها بما زادها استمساكاً بمحمد، وضاعف من رغبتها فيه، وحرصها عليه..

● وحدثها ميسرة عن الغمامة التي كانت تظلله من الشمس، وعما قاله الراهب نسطورا عنه حين سأل ميسرة: ممن هذا الرجل؟ فقال: من قريش من أهل الحرم، فقال نسطورا: إنه نبي وهو آخر الأنبياء!

● وكان ﷺ قبل ذلك، قد خرج مع عمه أبي طالب في رحلة إلى الشام، فرآه الراهب بحيرا، وعرف في محياه الطاهر علائم النبوة، فنصح عمه أبا طالب: أن يعود به من فوره إلى مكة، لئلا تراه يهود فتؤذيه..

لقد رأت خديجة فتى قريش يعيش في مجتمع قومه الموبوء بالجهالة والضلالة، فريداً في خلقه، حميداً في معاملته للناس، بعيداً عن عاداتهم وفساداتهم، واستمعت إلى نبوءات بحيرا ونسطورا وأحاديث غلامها ميسرة عن محمد، فازدادت يقيناً بأنه رجل الغد المرقوب، ورسول الخير المنتظر. لهذا المجتمع القرشي الذميم، المجتمع الذي يحتاج إلى إصلاح وتقويم.

ولئن غلبت العادة أو شاع العرف: أن يخطب الرجل المرأة، فقد حدث أن خطبت المرأة الرجل، كما خطبت عبد الله من قبل بعض حسان قريش: رقية وفاطمة وليلى. ولكنه كان من نصيب آمنة، لأن الله اختارها لتكون أماً لمحمد، فتكون سيدة الأمهات، كما اختار هنا خديجة زوجاً له لتكون خير النساء.

* * *

لقد كان سادات قريش وكبراؤها ثراء وجاهاً، يتقدمون لخطبة خديجة، لمالها الموفور، وجمالها المنظور، ونسبها الماجد، فكانت تردهم، لأنها فيما بينها وبين نفسها كانت تريد رجلاً يفوق الرجال، وزوجاً يسمو على الأزواج. وعرفت في (محمد) ﷺ: الزوج الفذ والرجل الممتاز. ومن هنا كان ما قالته صديقتها نفيسة بنت منبه: «لقد بعثتني خديجة دسيسة إليه أعرض عليه الزواج، فأجاب». وتم الزواج المبارك المبرور.

.. كانت (خديجة) خير زوجة لخير زوج، ورزق محمد ﷺ منها أولاده: القاسم والطاهر والطيب، وبناته: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء..

ومرت على الزواج السعيد خمسة عشر عاماً بلغ محمد ﷺ بعدها الأربعين من عمره.. بلغ أشده، واستوى كهلاً حكيماً كريماً، وازداد نفوره من مجتمع الضلالة والجهالة، وأصبح أكثر ميلاً إلى العزلة والانطواء والتفكر في ملكوت السماوات والأرض.

* * *

وكان غار حراء مباءة له، وأمناً لنفسه التي كانت تضيق بمجتمع قومه.. مجتمع الأصنام والأزلام والآثام، ووجد في (خديجة) الصديق الرفيق الذي أعانه على الخلوة إلى نفسه، واللجوء إلى غاره.. يتحنث ويتعبد، ويرتقب من ربه الهدى، ويلتمس النور.

وجاء الشهر المبارك الميمون.. شهر رمضان، ومحمد ﷺ في غار حراء يعبد الله، ويدعو ويسبح بحمده، وأزفت الساعة التاريخية الحاسمة في حياته بل في حياة البشرية كلها.. جاءه الناموس الذي كان ينزل على موسى وعيسى بفاتحة الوحي الإلهي القدسي الوضاء:

● ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعْلم﴾.

وبدأت أولى الحقائق الإلهية تنكشف للرسول المختار لهداية البشرية الضالة الحائرة.. حقيقة الرب الخالق، الرب المعلِّم، وحقيقة الإنسان المخلوق.. الإنسان الذي أكرمه خالقه بالعقل ليهتدي ويتعلم، ويميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

ولكن محمداً ـ من هول الموقف، وجلال اللحظة، وروعة الدرس الأول، الذي ألقاه جبريل عليه بعد أن غطه ثلاثاً ـ عاد إلى بيته مرتعداً مرتجفاً، تساوره الشكوك والمخاوف مما رأى وما سمع: أن يكون وهْماً أو ظناً أو تخيلاً من أثر الخلوة المنعزلة في الغار البعيد..

فعاد إلى بيته، على غير عادته، إذ كان يمكث في الغار أياماً بل شهوراً يتعبد ويتحنث، فاستقبلته (خديجة) الزوجة الرفيقة العطوف، متعجبة من عودته السريعة في غير ميعاده المنتظر، وهو ـ فوق ذلك ـ مضطرب مرتجف.. يقول لخديجة: زمّلوني.. زمّلوني..

وأحاطته (خديجة) الزوجة الحانية الرؤوف ببرها الدافق، فشعر ببرد الراحة، وهدأت روعته.. وراحت تسأله ما الذي

به؟ وراح يجيبها بما حدث له ثم يقول لها: «لقد خشيت على نفسي».

ولكن خديجة الزوجة الشريكة الودود، التي خطبته لنفسها وتزوجته بعد استخبار عن غده وما يحمله من أسرار كبار ظلت ترتقب انكشافها يوماً بعد يوم ـ خديجة هذه ـ التي علمت من هو (محمد) حاضراً ومستقبلاً، قالت له تطمئنه وتواسيه:

● (يا ابن العم.. والله لن يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

وطابت نفس (محمد) ﷺ بمواساة (خديجة) الزوجة المثلى، وبحديثها الرقيق، وتشجيعها الحاني، وثنائها على خلقه الكريم.. الذي لن يكون معه ولا بعده خزي أو سوء.

* * *

وضاعفت (خديجة) من وفائها لزوجها (محمد) وثباتها معه فيما ألم به من أمر.. لم يتبينا حقيقته بعد، فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ـ وقد كان على النصرانية ـ عالماً بما احتوته كتبها من أخبار ونبوءات. وروت له القصة فاستمع إليها ورقة، واستمع إلى محمد أيضاً يتحدث بقصته، فهو صاحب الشأن فيها، وهو الصادق الأمين.

وقال ورقة - الشيخ القرشي المتنصر - يوجه حديثه إلى خديجة: (يا ابنة العم.. والذي نفس ورقة بيده، لئن صدقتني الحديث، فإن ما رآه محمد في الغار إنما هو الناموس الأعظم الذي أنزل على موسى وعيسى من قبل، وإن محمداً لهو نبي آخر الدهر. إنه دعاء إبراهيم عليه السلام، وبشرى عيسى، وإن أهل الكتاب ليعرفونه في توراتهم وإنجيلهم)!

وجاء الناموس الأعظم مرة أخرى، إلى محمد - ﷺ -، كانت الجيئة الأولى ليعده للأمر العظيم، ليعرفه بربه الأكرم، الذي خلق الإنسان من عدم، وعلّمه ما لم يعلم، فهو الحقيق بالتوحيد والعبادة دون ندّ أو شريك.

أما مجيء الناموس الأعظم هذه المرة الثانية، فقد كان لتكليف محمد أن ينهض برسالة الله إلى الخلق، رسالة الإيمان به وحده، وعبادته وحده، ونبذ ما يعبد من دونه باطلاً وزوراً.. من أصنام وأوثان.

واضطرب جسد محمد، واهتز فؤاده، وتصبَّب منه العرق كالجمان.. وهو يستمع إلى جبريل ينقل إليه كلام ربه الكبير المتعال: ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر..﴾.

* * *

وظلت (خديجة) هي الزوجة المثالية ترعى (محمداً) في كل ما يلم به من أحداث، وما يكلف به من مهمات.. ترفق به وتواسيه وتعينه، قبل أن يبعث رسولاً، وبعد أن أُرسِل، فآمنت به وصدقته ونصرته حتى قال عليه الصلاة والسلام يوماً لعائشة وقد أصابتها عادة النساء في الغيرة حين يذكرها الرسول الزوج الوفي، وعندما يكرم صديقاتها، حيث قالت عائشة له ﷺ:

● (ما تذكر من عجوز، من عجائز قريش.. هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها).

● فزجر الرسول الزوج الوفي عائشة قائلاً لها: «والله ما أبدلني الله خيراً منها.. لقد آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها يوم حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء»!

هكذا كانت (خديجة) زوجة الرسول الوفية.. التي أقرأها جبريل سلام ربها لها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب! (خديجة) التي قال عنها زوجها الصادق الأمين، أفضل خلق الله وأكرم رسله: «إنها أفضل نساء أهل الجنة مع فاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسيا امرأة فرعون»!.

(خديجة) التي افتقد الرسول الأعظم ﷺ ـ يوم وفاتها ـ الشريكة الحبيبة والزوجة المثلى، والرفيق الناصر، والصديق المواسي بالنفس والمال، . . وكانت سيرتها ـ رضي الله عنها ـ وما تزال لكل زوجة: المَدرسة، والقدوة، والمثال.

خادمة بيتها

كانت خديجة ـ كما أسلفنا ـ المثال النادر الباهر لأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة البارة، وعاطفة الإيمان الوثيق.

وجاءت وليدتها (فاطمة الزهراء) على مثال أمها، أنجبتها للرسول الأعظم فيما أنجبت من بنين وبنات.. طاهرين وطاهرات.

● محمد رسول الله: أبوها، وكفى!

● وخديجة بنت خويلد: أمها.. كانت أول من آمن بمحمد، وآزره ونصره، وعرفت في الجاهلية قبل إسلامها باسم (الطاهرة) ووصفت بأنها سيدة نساء قريش.

ومن هنا كانت الزهراء شديدة الاعتزاز بأبيها، قوية الإرادة فيما تريد وما لا تريد، مفطورة على التدين. وحسبها ما ورثته من أبيها خاتم الأنبياء، وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة، وما

ورثته عن أمها خديجة ذات النسب المذكور، والجمال المنظور، والدين الوافر. .

وصدقت عائشة فيها قالت: (ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها).

* * *

نعمت (فاطمة الزهراء) بحنان خاص من أبويها الكبيرين، إذ كانت صغرى أولادهما، ولأنها هي التي بقيت لأبيها بعد موت أخواتها: زينب، ورقية، وأم كلثوم اللاتي فاجأهن الموت، وهن في طراوة العمر، وبكور الشباب!

وتعلمت كل ما يتعلمه البنات في حاضرة الجزيرة العربية، فكانت تضمد جراح أبيها في بعض الغزوات. وبعد زواجها من الإمام علي رضي الله عنه كانت تقوم وحدها بخدمة بيتها دون مساعد أو معين.

وسمعت القرآن الكريم من فم أبيها النبي - ﷺ - ومن زوجها الإمام علي، وصلّت به، ووعت أحكام فرائضه، وفهمت - في تربيتها - كل ما فهمته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب، وزادت على ذلك ما هيأته لها العناية الإلٓهية من نشأة في حجر النبوة الهادية، والأبوة العصماء.

* * *

وكان زواجها من الإمام علي، وهي في نحو الثامنة عشرة من عمرها. وقد آثره الرسول ﷺ بأحب الناس إليه، وردَّ أبا بكر وعمر حين خطباها منه.

ويقول كتاب السيرة النبوية: إن فاطمة رضي الله عنها قد بكت حين أبلغها الرسول نبأ زواجها من الإمام.. فقال لها: «ما لك تبكين يا فاطمة؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً».

وكان زواجها من علي بأمر الله، كما جاء في خطبة الرسول ﷺ، حيث قال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ: «إن الله أمرني أن أزوِّج فاطمة من علي.. وأشهدكم أني زوجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة، إن رضي بذلك، على السنة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة».

فقال علي: رضيت يا رسول الله. وخرّ ساجداً شاكراً للّه، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ: «بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب».

وآوى الزوجان إلى ظل البيت الجديد، على نحو من الحياة في بيت أبيها عليه الصلاة والسلام.. عيشة كفاف، وخدمة

يتعاون عليها الزوجان الفقيران. فقد ضاقت يد علي عن أجرة خادم. وجاءت فاطمة مرة إلى الرسول الكريم تطلبه خادماً من الفيء، فردَّها وعلَّمها دعوات تدعو بها، وتستعين بالله على خدمة البيت، وتربية الولد، ورعاية الزوج.

وقال لها مُوصياً ومرشداً: «يا فاطمة اصبري.. إن خير النساء التي نفعت أهلها».

.. ورزق الأبوان الفقيران ذريةً من البنين والبنات: الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم.

وكان أسعد ما يسعدان به: عطف الأب الأكبر، الذي يرعاهما به، ولا يصرفه عنهما شاغل من شواغله الجسام وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عَنِتُّم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، فكانت فاطمة وزوجها وبنوها من رأف الرسول ورحمته في ظل بارد وكريم.

وكان الرسول ﷺ يأتي باب علي وفاطمة كل يوم عند صلاة الفجر ويقول: «السلام عليكم أهل البيت، ثم ينادي: الصلاة.. الصلاة.. الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرا..».

كذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنَّى (بفاطمة)، ويأتي بعد ذلك بيوت أزواجه أمهات المؤمنين.

وقد عاد ﷺ ذات مرةَ من سفر، ودخل على (فاطمة)، فوجد عندها قلادة وقرطين ومسكتين من فضة وستراً على بابها، فخرج من عندها غاضباً، وارتقى المنبر، ففطنت فاطمة لسبب غضبه، فنزعت القلادة والقرطين والمسكتين والستر، وبعثت بها إلى الرسول ﷺ وهو فوق المنبر، وقالت له: اجعل هذا في سبيل الله، فسر الرسول وقال: «قد فعلت فداها أبوها.. فداها أبوها.. فداها أبوها، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد.. ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً فيها شربة ماء»!

* * *

ولم يسلم بيت فاطمة وعلي من الخلاف.. شأنه شأن كل بيت يقيم فيه زوجان رجل وامرأة، حتى بيوت محمد الرسول ﷺ.. لم تسلم من خلاف ومغاضبة وخصام يقصر أو يطول.

وكان الأب الأكبر، ذو الحنان الأوفر، الذي شمل الناس جميعاً، يتولى هو عليه الصلاة والسلام إصلاح ذات البين في

بيت الزوجين الحبيبين: فاطمة وعلي. ويخرج منه فرحاً بعد أن كان قد دخله حزيناً، فيسأله الصحابة، ويجيبهم: ولم لا؟ وقد أصلحت بين أحب الناس إلي.

واشتد الخصام ـ مرة ـ بين الزوجين القريبين الحبيبين، لأن فاطمة علمت أن علياً يهم بالزواج من امرأة أخرى، فذهبت غاضبةً إلى أبيها.. تبكي وتقول له: (يزعمون أنك تغضب لبناتك!!)..

وعرف النبي ما تعنيه فاطمة، لأن بني هشام بن المغيرة استأذنوه في تزويج ابنتهم من علي؟ فصعد عليه الصلاة والسلام منبره والأسى باد على محياه، وقال: «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً ألا وإني لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن. إنما فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها».

* * *

وكانت (فاطمة) رضي الله عنها أشبه الناس بأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها. قالت عائشة: ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله من فاطمة.

وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبَّلها، ورحب بها، وأجلسها في مجلسه.. وكان إذا دخل عليها قامت إليه، ورحبت به، وأخذت بيده فقبلتها.

زارها الرسول يوماً، فوجدها تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

وزارها مرة أخرى وهي مريضة فقال لها: «كيف تجدينك يا بنية؟ فقالت: إني لوجعة، وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله. ويبكي ﷺ لمشهد ابنته المريضة الجائعة، ويقول لها: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين»؟!

ورآها أبوها النبي ـ في مرض موته ـ فقال لها: إنها أسرع أهله لحوقاً به، فلم تمض ستة شهور حتى لحقت به وهي في الثلاثين من عمرها.. تلك السن الباكرة التي يستقبل أمثالها فيها زهرة الحياة، ويستمتعن بالشبيبة الفارغة من الهموم.

لقد ماتت الزهراء، ابنة الرسول، وزوجة الإمام، وأم الحسن والحسين، وجدة ذلك النسل الطيب الكثير..

الزوجة المعلمة

حسبها أن تكون ابنة أبي بكر، ذلك الصاحب الوفي الكريم، صاحب الرسول العظيم الذي قال عنه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد. . إلا ما كان من أبي بكر ما تريث حين ذكرت له الإسلام، وما تردد فيه».

حسبها أن تكون ابنة الصاحب الأول والأفضل، الذي قال فيه الرسول الصادق الأمين: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله هل أنا ومالي إلا لك؟

● وكفاها مجداً: أن يتنزل القرآن ببراءتها من حديث الإفك الآثم، الذي خاض فيه المنافقون، وأثاره الحاقدون، ويتعبد المسلمون مدى الحياة بهذا القرآن ويتلونه ما بقي الإسلام، وما تلي القرآن.

● وكفاها سعداً: أن يسأل الرسول ﷺ: من أحب الناس إليك؟ فيجيب: «عائشة»، ويعيد السائل سؤاله: إنما أقول من الرجال؟ فيقول الرسول: «أبوها».

* * *

(عائشة) بنت أبي بكر.. التي تجتمع مع زوجها الرسول الأعظم - ﷺ - في جدهما (مرة بن كعب). ثم هي من بني تيم المعروفين بالكرم والشجاعة، وبالأمانة وسداد الرأي، وبحسن المعاملة لنسائهم.

وأبو بكر أبوها. . كان أنسب قريش لقريش، وأعلم الناس بها، وبما كان فيها من خير وشر. وكان تاجراً ذا خلق ومعروف، مقصوداً من رجال قومه لعلمه وخبرته، وحسن مجالسته، وفضل مؤانسته.

ولما جاء العرب رسول من أنفسهم: محمد بن عبد الله ﷺ، كان أبو بكر السابق إلى الإسلام، المناضل عنه، الباذل في سبيله كل ما يملك، الداعي إليه بحماس وإخلاص.

(عائشة) التي يقول فيها الشاعر الأنصاري حسان بن ثابت:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها وطهرها من كل سوء وباطل
حليلة خير الخلق ديناً ومنصباً نبي الهدى والمكرمات الفواضل

(عائشة) التي يتحدث كتاب السيرة عن كرمها وزهدها، فيذكرون أنها أتيت بمئة ألف، ففرقتها من فورها وهي يومئذ صائمة. فقالت لها أم بردة: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ فقالت لها عائشة: لو كنت أذكرتني لفعلت.

● وأما علمها وأدبها.. فيقول أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً..

● ويقول موسى بن طلحة: ما رأيت أفصح من عائشة، وكان مشيخة الصحابة - كما يذكر أبو ضحىً عن مسروق - يسألون عائشة عن الفرائض..

● وروي عن عطاء بن رباح أنه قال: كانت عائشة من أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة.

وحسبها ذكراً خالداً ماجداً: أن زوجها الرسول الأعظم ﷺ، قال لنسائه حين أدركتهن الغيرة منها: «لا تؤذوني في عائشة.. فإنه والله ما نزل علي الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها».

● وقالت (عائشة) عن نفسها مرة إني لأفخر على أزواج النبي ﷺ بأربع: ابتكرني ولم يبتكر امرأة غيري، ولم ينزل عليه القرآن منذ دخل علي إلا في بيتي، ونزل بِعُذْري قرآن يتلى، وأتاه جبريل بصورتي مرتين قبل أن يملك عقدي.

ورجت الرسول مرة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. ادع الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه وقال: «اللهم اغفر لعائشة، بنت أبي بكر مغفرة ظاهرة وباطنة، لا تغادر ذنباً، ولا تكتسب بعدها خطيئة».

وفرحت عائشة بهذه الدعوة المستجابة، وظنتها خالصة لها. فقال عليه الصلاة والسلام: «أما والذي بعثني بالحق ما خصصتك بها من بين أمتي، وإنها لصلاتي لأمتي بالليل والنهار.. من مضى منهم ومن بقي إلى يوم القيامة».

قال أسيد بن حضير: (ما هذه بأول بركاتكم علينا يا آل أبي بكر) وفي رواية أخرى أن أُسَيْداً قال قولته هذه عندما انحبس الرسول والمسلمون في بعض الغزوات بسبب انقطاع عقد عائشة، وليس معهم ماء؛ فنزلت آية التيمُّم.

* * *

. . . أما قصة زواجها بأكـرم الخلق، وأفضل الأنبيـاء، وأشـرف المرسلين، فتـرويها خـولة بنت حكيم، وهي التي اقترحت زواجها على الرسول ﷺ، فانشرح صدره لمصـاهرة أحب الناس إليه. . أبي بكر رضي الله عنه، ليزداد الصاحبان الوفيان مودة وقربى.

تقول خولة: دخلت بيت أبي بكر، فوجدت أم رومان ـ أم عائشة ـ فقلت لها: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

فقالت أم رومان: وما ذاك يا خولة؟

فقلت: أرسلني رسول الله أخطب له عائشة!!

وجاء أبو بكر فقالت له خولة ما قالته لزوجته. فطلب منها أن تنتظر حتى يرجع. وكانت عائشة قد خطبها المطعم بـن جبير لابنه جبير، ووعده أبو بكر بها. ولكن المطعم وزوجته قد خافا إن تزوج ابنهما عائشة أن تدخله في الإسلام، وتحدثا إلى أبي بكر بخوفهما ذاك، فخرج أبو بكر بعد مقالة خـولة عن خـطبة الرسول ﷺ. . فرحاً لما أحله الله من وعده. .

وعاد أبو بكر إلى بيته، فقال لخولة: ادعي لي رسول الله، فدعته وجاء عليه الصلاة والسلام إلى بيت صديقه أبي بكر، فزوجه (عائشة). ولكنه لم يدخل بها إلا في المدينة المنورة بعد هجرته إليها.

قالت عائشة: جاء رسول الله - ﷺ - إلى بيتنا، فاجتمع إليه رجال ونساء من الأنصار. وجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عرقين فأنزلتني، ثم سوّت شعري، ومسحت وجهي بشيء من الماء، ثم أقبلت تقودني، وأدخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا، فأجلستني في حجره، وقالت:

(هذه أهلك يا رسول الله.. فبارك الله لك فيها، وبارك لها فيك).

وكانت (عائشة) - كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ - عروساً حلوة، ذات عينين واسعين، وشعر أجعد، ووجه مشرق مشرب بحمرة..

وهي - وإن كانت صغيرة السن - إلا أنها منذ وطئت قدماها بيت الرسول عليه الصلاة والسلام.. كان الجميع من حولها يحسون وجودها.. تدرجت بين يدي الرسول من صبية إلى شابة نضجة مجربة يتحدث إليها النساء، ويطلبن رأيها ومشورتها. وقد سألتها إحداهن مرة عن أمر من أمور الزينة والتجمل، فكانت نصيحة عائشة لها: (إن كان لك زوج.. فإن استطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيها أحسن مما هما، فافعلي)!.

* * *

وقد استنكر بعض المستشرقين أن يتزوج الرسول ﷺ بعائشة، فقال قائلهم: إنه جمع غريب بين زوج كهل وطفلة غريرة عذراء!

وأخطأ المستشرقون ـ كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء ـ حين استنكروا زواج الرسول بعائشة، لقياسهم الفاسد بين فتيات الجزيرة العربية، وبين فتيات الغرب المتحضر. حيث لا تتزوج الفتاة الغربية عادة قبل سن الخامسة والعشرين، وهي سن تعتبر جد متأخرة حتى وقتنا الحاضر، في الجزيرة العربية!

وقد قال مستشرق منصف ـ بعد زيارته للجزيرة وقيامه فيها ببعض الدراسات والمشاهدات ـ: إن عائشة كانت على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين.

وقال بودلي: (إن زواجاً مثل ذاك لا يزال عادة آسيوية، وما زال عادة قائمة في شرق أوروبا، وكانت طبيعية في إسبانيا والبرتغال إلى سنين قريبة، وهي ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية البعيدة في الولايات المتحدة).

* * *

لقد كانت (عائشة) رضي الله عنها: الزوجة الأثيرة عند الرسول لذاتها ولمكانة أبيها الصديق عنده ﷺ.

وكانت بين زوجاته أشدهن غيرة عليه، وحباً للاستئثار به، وكادت لبعضهن بعض المكائد، حتى قال عليه الصلاة والسلام عنها وعن بنات جنسها: «إنكن صواحب يوسف.. إن كيدكن عظيم».

وعانت من قصة الإفك التي أثارها رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول كثيراً، كما عانى الرسول منها أكثر حتى جاءت براءتها من السماء قرآناً يتلى على مدى الزمان.. فيه العظة والعبرة، وفيه النصيحة بعدم الخوض في أعراض المؤمنين والمؤمنات.

* * *

وتوفي الرسول ﷺ.. بعد أن عاشت معه تشهد أمجاده وأفضاله، وتتلقى علمه وحكمته وهداه.

ثم عاشت بعده لتكون مرجعاً وثيقاً في حديث الرسول وسنته وسيرته، يروي عنها الرواة، وينقل عنها المحدثون، وبخاصة ما يتعلق بأحوال النساء.. وهذه بعض توجيهاتها وتنبيهاتها:

● (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين).

● (إن كان رسول الله ﷺ ليصلي الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس).

● (لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل).

وتوفيت رضي الله عنها في السادسة والستين من عمرها ولكنها ظلت خالدة (عائشة) كاسمها في تاريخ الإسلام المجيد: سياسة وتشريعاً وأدباً.

حارسة القرآن

كانت في الثامنة عشرة من عمرها، عندما تزوجها رسول الله ﷺ، بعد أن ترملت من زوجها الأول (خنيس بن حذافة) وهو من المهاجرين الأولين إلى الحبشة، وقد شهد خنيس بدراً ثم شهد أحداً، فأصابته جراح مات بسببها في المدينة المنورة.

وكان لها من الشباب والجمال والتقوى نصيب ملحوظ، وهي من بني عدي الموصوفين بأنهم معادن الخير، وتلتقي بنسبها في كعب بن لؤي، مع الزوج الكريم العظيم.

إنها حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ذلك الصحابي الجليل، الذي أعز الله به الإسلام. وكان من الملهمين المحدثين، وشهد له الرسول ﷺ: بأن الحق يدور على لسانه حيث دار، وأنه ما رآه الشيطان يسلك فجاً إلا سلك فجاً غيره. وعندما تولى إمارة المؤمنين كان مثالاً نادراً للحاكمية الإسلامية: عدالةً وأمانةً وحرصاً على مصلحة رعاياه.

* * *

لقد ضاق صدر عمر بترمل ابنته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، واغتم لمصيبتها في زوجها المهاجر المجاهد، وجعل يفكر في أفضل رجل. . يخطبه لها، فاختار أولاً (أبا بكر) رضي الله عنه أحب الناس إلى الرسول ﷺ، وعرض عليه الزواج من حفصة، فسكت أبو بكر ولم يجب بشيء. . ثم اختار لها (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، بعد أن توفيت زوجته رقية ابنة الرسول، فكلمه في شأن حفصة، فأجابه عثمان بأنه لا يريد أن يتزوج الآن.

وازداد عمر هماً وغماً برفض عثمان بعد رفض أبي بكر للزواج من حفصة، وكبر في نفسه أن يلقاه كل منهما هذا اللقاء القاسي، وهو صاحبهما ورفيقهما الذي لا يجهلان مكانته، ولا يضيعان كرامته.

فذهب إلى نبي الرحمة. . لعله يجد في لقياه ورؤياه فرجاً لكربه، ولطفاً بأساه. وكان ما تمناه إذ استقبله الرسول ﷺ هاشاً باشاً، وأدرك ما به من حزن وأسى، فسأله عن حاله؟ وأجابه عمر بما لقي من أبي بكر وعثمان.

لقد حدَّث عمر الرسول بأمر حفصة. . وما أصابه من صاحبيه، عندما عرض عليهما الزواج منها، فرفضا. وحدث ما لم يتوقعه الفاروق. . قال له النبي الكريم: «يتزوج حفصة من

هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة» وكان عليه الصلاة والسلام يعني نفسه، فهو خطيبها الأفضل والأمثل، ويعني ابنته أم كلثوم التي زوجها لعثمان بعد وفاة أختها رقية التي كانت زوجة له.. وقد سمي رضي الله عنه لذلك ذا النورين!

* * *

وسر عمر بالمفاجأة السعيدة المجيدة، التي لم يكن ينتظرها، وخرج إلى ابنته حفصة يبشرها بأن الرسول سيتزوجها، وستكون في عداد أمهات المؤمنين.. ويا له من شرف عظيم في الدنيا والآخرة.

ثم لقي عمر أبا بكر، وهو مغتبط مسرور، فهنأه أبو بكر معتذراً إليه عن موقفه ذاك، وقال له: (لا تجد علي يا عمر.. فقد سمعت رسول الله ﷺ يذكر حفصة.. فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها لتزوجتها)!

* * *

وجاءت (حفصة) عروساً جديدة، إلى بيت أفضل زوج وأكرم إنسان، وضاقت بها ـ بادي الرأي ـ الزوجة السابقة الأثيرة المفضلة (عائشة بنت أبي بكر). ولكنها لم تجد فيها ثغرة لمعابة أو تثريب، فهي من هي شباباً وجمالاً ونسباً، وهي فوق

ذلك ابنة عمر صاحب الرسول كأبيها أبي بكر رضي الله عنهما. وكلاهما له في الإسلام مكانة، وفي الجهاد قدم صدق، وعند الرسول مقام محمود.

لم تجد عائشة بداً من أن ترضى بحفصة شريكة لها في الزوج العزيز الكريم، وأن تتخذها صديقة تتعاون معها وتقف في صفها تجاه الضرائر الأخريات!

* * *

وقد تنبه عمر لموقف ابنته حفصة مع عائشة، وخشي عليها من أن تسلك مع الرسول ﷺ مسلكاً تقتدي فيه بعائشة.. وليست هي في مثل مقامها عند الرسول، فيغضب عليها أو يفارقها!

لقد كان عمر حريصاً على (حفصة) منذ وفاة زوجها خنيس! أن يجد لها زوجاً يصونها ويكرم شبابها. وتحمل في سبيلها رفض أبي بكر وعثمان. ولم يكن يحلم بأنها ستصبح زوجة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

ثم ها هي الآن تنضم إلى زوجات الرسول، وأمهات المؤمنين، وتدخل بيته الشريف. فهل يتركها تعبث بمصيرها، وتضيع مستقبلها في هذا البيت الرفيع؟

لا. إن حرص عمر الشديد على أن تبقى (حفصة) في عداد زوجات الرسول الكريم، وأمهات المؤمنين الطواهر، جعله يذهب إليها محذراً من مواقف عائشة تجاه الزوجات الأخريات. وقال لها بصرامة مؤلمة: (أين أنت من عائشة؟ وأين أبوك من أبيها..؟ يا بنيتي لا تغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب الرسول لها. والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك ولولا أنا لطلقك)..

* * *

ووقع ما كان يحذره عمر.. فأفشت (حفصة) سراً للرسول عليه الصلاة والسلام إلى عائشة حول تحريمه لمارية القبطية على نفسه، واشتعلت نار الفتنة في بيوت النبي. واعتزل عليه الصلاة والسلام نساءه شهراً حتى قيل إنه طلقهن جميعاً، وشاع ذلك بين الناس.

ونزل في ذلك قرآن يتلى.. أوائل سورة التحريم، عتاباً للرسول على تحريمه ما أحل الله له، وفيها تهديد ووعيد لعائشة وحفصة في قوله عز وجل: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وقيل إن الرسول طلق (حفصة) تطليقةً واحدة ثم ارتجعها.

وورد في قصة طلاقها ورجعتها أن أباها عمر حثى على رأسه التراب، وقال: (ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها) فنزل جبريل من الغد على الرسول ﷺ يقول له: «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمةً بعمر» وفي رواية أخرى: «ارجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة».

لقد كادت حفصة أن تهلك أسفاً وحسرة، فقد أدركت فداحة ما سببت للرسول من كرب وألم عندما أذاعت سره، وأخلفت وعدها بأن تكتم خبر تحريم النبي لمارية القبطية على نفسه، ترضيةً لها.

فثابت الآن إلى الأمن والسكينة. واطمأنت إلى بقائها على شرف الانتساب إلى زوجات النبي، وأمهات المؤمنين.

* * *

وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وخلفه أبو بكر على شؤون المسلمين - اختيرت (حفصة من بين أمهات المؤمنين، وفيهن عائشة الأثيرة، لتحفظ أول مصحف خطي للقرآن الكريم، وذلك أن عمر نصح أبا بكر أن يبادر بجمع القرآن من الصدور والصحف قبل أن يموت حملته وحفظته، وتضيع صحفه المفرقة، فاستجاب أبو بكر، وجمع القرآن في مصحف واحد، وأودعه عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها).

وعاشت (حفصة) بعد موت الرسول عابدة قانتة، صوامة قوامة، منفردة بشرف الائتمان على أول مصحف للقرآن، كتاب الإسلام الأول ومعجزته الخالدة، وشريعته الراشدة، وعقيدته الواحدة.

وعندما أحس أبوها أمير المؤمنين (عمر) بدنو أجله بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي ـ كانت حفصة وصيته على تركته، ثم أوصت حفصة أخاها عبد الله بما أوصاها عليه أبوها، وأوصته كذلك بصدقة يتصدق بها عنها، وبمال وقفته..

وتوفيت رضي الله عنها في أوائل خلافة معاوية بن أبي سفيان، وحسبها أن جبريل عليه السلام نزل على الرسول يبلغه أمر ربه بإرجاعها بعد طلاقها، ويصفها بأنها الصوامة القوامة، وأنها زوجته في الجنة.

وحسبها كذلك أن الخليفة الأول اختارها ـ من بين نساء الرسول ـ لحفظ أول مصحف خطي للقرآن الكريم.

الأم الشجاعة

من منا لا يذكر (ذات النطاقين) التي ذهبت بعض أقوالها أمثلة تضرب فتعجب وتطرب؟ كقولها لابنها: (إن الشاة بعد الذبح لا يضرها السلخ) وقولها للحجاج عن ابنها الذي قتله ثم صلبه: (أما آن لهذا الفارس أن يترجل)؟!.

من منا لا يذكر أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - مثال الزوجة الصالحة، والأم الشجاعة، والفتاة الرزينة؟

حسبها أن أبا بكر أبوها.. صاحب الرسول الأول، رفيقه في الهجرة، وخليفته في الحكم، والسابق أبداً إلى كل مكرمة وفداء وبلاء.. في سبيل الإسلام.

* * *

لقد تزوجت (أسماء) الزبير بن العوام، حواري الرسول ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وليس للزبير مال

ولا خدم إلا فرس وجمل، فكانت أسماء مع دلالها وجاهها في بيت أبيها: تعلف فرس زوجها وجمله، وتدق له النوى، وتستقي الماء، وتملأ الدلو للعجين، وتنقل النوى على رأسها من مسافة بعيدة. . حتى بعث لها أبوها بجاريةٍ كفتها خدمة الفرس والجمل!

وكانت ـ على فقر زوجها ويسار أبيها ـ زاهدةً سمحة، تفعل الخير، وتصنع البر. فإذا أحست دبيب المرض في جسمها سارعت إلى فك رقاب إمائها اللاتي كن عند أبيها، فأعتقتهن صدقة ومعروفاً.

وكانت توصي نساءها، وتقول لبناتها: أنفقن ولا تنتظرن الفضل.

وقد أنجبت للزبير: عبد الله، وعروة، وعاصماً، والمهاجر، وخديجة، وأم حسن، وعائشة، فطبعتهن بطابع البطولة وحب الجهاد، وأورثتهم إباء الضيم، ولباس المروءة.

* * *

عاشت أسماء بنت أبي بكر عمراً طويلاً. . شهدت خلاله: دُوَلًا تدول؛ وفِتَناً تضطرب، وحُروباً تتلظى. وكانت لها ـ ككل امرأة وكل رجل أيضاً ـ فترة شباب وفتوة، وفترة شيخوخة وحكمة. .

كانت الفترة الأولى عند هجرة الرسول ﷺ بصحبة أبيها إلى المدينة. . ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾، وكانت الثانية عندما سلط عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف على ولدها عبد الله بن الزبير. . يحاربه ويعاديه!

كان الرسول ﷺ وأبو بكر معه ينتظران أن يأذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة ابتعاداً عن أذى المشركين، والتماساً للأمن والعون هناك عند الأنصار الأبرار، ليصدع الرسول بالدعوة إلى الإسلام، في سعة وحرية وسلام.

وأقبل الرسول على دار أبي بكر - على غير موعد - ورأته أسماء، فسارعت إلى أبيها تخبره، وبادره أبو بكر يسأله: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أقدمك الساعة؟ فأسر الرسول إليه: بأن الله قد أذن له في الهجرة إلى المدينة. وأعد أبو بكر راحلتين للرسول واحدةً وله الأخرى. واستعجلا الرحيل، على حين غفلة من أرصاد قريش وعيونهم. ولم يتزودا بزاد يكفيهما، واعتصما بغار في هامة جبل «ثور»[1].

* * *

---

(١) سمي كذلك لنزول ثور بن الحارث به.

وعلم الأعداء بخبر خروج الرسول من مكة، ومعه صاحبه أبو بكر، وكانت أسماء هي العليمة وحدها بالملجأ الذي آوى إليه الصاحبان الكريمان، والخبيرة وحدها بالطرق التي سلكوها إليه.. إذ كان عليها أن تحمل إليهما ـ عشية كل يوم من الأيام القليلة التي لبثاها في الغار ـ شيئا من الطعام، وقليلاً من الماء..

وكانت أسماء ـ إلى جانب حملها الزاد إلى الغار ـ تستطلع الأخبار في مجتمعات قريش بمكة، وتستعين بأخيها عبد الله بن أبي بكر، لتطمئن على سلامة المهاجرين العزيزين وأمنهما، فكان عبد الله يأتيها بما يسمعه من أنباء وأحاديث وتربصات للأعداء. وهي بدورها تنقلها إلى الصاحبين المهاجرين..

وجاء أبو جهل يوماً يطرق بابها، وهي تعلم لماذا جاء، وتعرف جبروته وبطشه، فلا يهمها ذلك كله، وتقف له في شجاعة الفتاة المؤمنة. ويسألها أبو جهل عن محمد وأبيها؟ فتجيبه بأنها لا تعلم عنهما شيئاً، فيكرر السؤال مع التهديد والوعيد، فلا تقول جديداً غير ما سبق، فيشتعل أبو جهل غضباً وغيظاً، وينفجر حقده بلطمة عنيفة من يده الكافرة على خد أسماء، طار لها قرطها، ولم يشف منه الغليل..

وتحدثت أندية مكة.. عن فعلة أبي جهل بأسماء، وتذكر الناس بها فعلته السابقة بـ(سمية) أم عمار بن ياسر التي ماتت

مطعونة بحربة أنفذها الطاغية فيها بَغْياً وعَدْواً، فكانت أول شهيدة في الإسلام.

* * *

وبلغ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مأمنه مع صاحبه في المدينة المنورة، وأقبل الأنصار عليهما مسلِّمين مؤيدين، باذلين لهما كل عزيز وغال من الأنفس والأموال.

ولحقت (أسماء) بالمهاجرين، فنزلت بقباء. ولدت فيها ابنها (عبد الله) وحملته إلى الرسول ﷺ، فباركه الرسول ووضعه في حجره.. وكان عبد الله أول مولود في الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة.

وطال بأسماء العمر.. حتى كف بصرها، وأدركت عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، حيث نشب خلاف بينه وبين ولدها عبد الله.. فيرمي عبد الملك الحجاز بجبروت الحجاج، ويهجم جيشه على مشارف أم القرى، وتنصب المجانيق على أبي قبيس لضرب الكعبة المشرفة.

ويمضي عبد الله بن الزبير في جهاده وكفحه للحجاج وجنده، حتى يخذله ـ أي عبد الله ـ قومه وعشيرته، ويرسل إليه الحجاج وعداً بإمارة مكة إذا هو كف عن القتال، وبسط يده لمبايعة عبد الملك.

ويستشير عبد الله أمه أسماء، فتأبى عليه أن يتخاذل، مع أنها عالمة بتخلي قومه وعشيرته عنه. وتقول له: (إن كنت على الحق فامض..) وخوفته من أن (يلعب به صبيان بني أمية).

وكأنما أحس عبد الله بمصيره القريب، فقال لأمه: إنه يخشى أن يمثل به الأعداء بعد أن يقتلوه.. فقالت له كلمتها الخالدة: (يا عبد الله.. إن الشاة بعد الذبح لا يضيرها السلخ).

وثبت عبد الله (ابن أسماء) في وجه الحجاج الطاغية وجنده.. حتى قتلوه ثم صلبوه!

فكانت أمه تمر بجثته، وتتلمسها بيدها، صابرة محتسبة، جريئة القلب واللسان إذ كانت تهتف: (أما آن لهذا الفارس أن يترجل) فكان تجلدها وسخريتها أشد غيظاً للحجاج ـ على جبروته وطغيانه.

رضي الله عنها، ورحم عبد الله في الشهداء الأبرار.

المهاجرة الأولى

أبوها: هو أبو أمية بن المغيرة.. أحد أجواد العرب المعدودين وقد سمي (زاد الركب) لأنه كان إذا سافر لا يترك رفاقه في السفر يحملون زاداً معهم، بل يكفيهم من زاده الموفور..

وأمها: هي عاتكة بنت عامر بن أبي ربيعة، الكنانية من بني فراس المعروفين بالأمجاد التلاد.

وزوجها الأول: هو أبو سلمة.. عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة.. صحابي جليل، من المهاجرين الأوائل، والمجاهدين الصادقين، وهو ابن عمة الرسول (برة) بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة.. أرضعتهما (ثويبة) مولاة أبي لهب.

وهي: هند بنت أبي أمية، المعروفة بأم سلمة، أولى المهاجرات المسلمات إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة روت

العديد من أحاديث الرسول ﷺ، وشاركت (عائشة) في فخرها بنزول الوحي في بيتها.. حيث نزل على رسول الله ﷺ، وهو في بيتها قول الله عز وجل: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. عسى الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم﴾ وقد نزلت في أبي لبابة رضي الله عنه.

وقالت (عائشة) رضي الله عنها: (لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزناً شديداً، لما ذكر لي من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وصفت به).

* * *

لقد كانت أم سلمة وزوجها أبو سلمة رضي الله عنهما من المسلمين السابقين، والمهاجرين الأولين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنورة، وقصة هجرتهما إلى المدينة من أروع قصص الإيمان الصادق، والتضحية والإيثار، والصبر الجميل الطويل على المتاعب والآلام.

فعندما عزم أبو سلمة على الهجرة مع زوجته إلى المدينة، بعد عودته من الحبشة إلى مكة المكرمة، أعد بعيراً وحمل عليه زوجته وولدهما (سلمة) ثم خرج يقود بعيره وحمل عليه زوجته وولدهما (سلمة) ثم خرج يقود بعيره وعليه أهله، فتصدى له بنو المغيرة أهل زوجته يمنعونه من الهجرة بها، ونزعوا خطام البعير من

يده، وأخذوا أم سلمة. . فغضب عند ذلك بنو أسد أهل زوجها، وأقسموا لا يتركون ولدها (سلمة) معها بعد أن نزعها أهلها من صاحبهم. وتجاذبوا الوليد حتى خلعوا يده، وانطلق به رهط أبيه، وحبسها هي بنو المغيرة عندهم سنة أو قريباً منها.

وراحت أم سلمة تخرج كل غداة إلى الأبطح بمكة المكرمة، وتجلس باكية حتى تمسي ـ طوال أيامها عند بني المغيرة ـ حتى مر بها رجل منهم، فرقّ لها ورحمها، وحدث عنها عشيرته قائلاً لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها. . وما زال بهم يحاورهم ويداورهم حتى لانت قلوبهم بعد قسوة، وأذنوا لها باللحاق بزوجها أبي سلمة في المدينة المنورة.

وهناك ـ في دار الهجرة ـ ولدت لأبي سلمة: عمر، ودرة، وزينب، وعكفت على تربية أولادها، وتفرغ أبو سلمة للجهاد مع رسول الله ﷺ في سبيل رفع راية الإسلام، ونشر دعوته. .

وشهد مع الرسول القائد بدراً أولى معارك الإسلام الفاصلة واستعمله الرسول على المدينة حين خرج إلى غزوة العشيرة، ثم عقد له لواء سرية إلى بني أسد، فخاض معهم معركة ظافرة، وعاد إلى المدينة يشكو من جرح قديم أصابه في غزوة أحد.

* * *

ومات أبو سلمة ـ بعد ذلك ـ متأثراً بجراحه في غزوة أحد، وترملت أم سلمة حتى إذا انقضت عدتها، أقبل عليها أبو بكر يخطبها فردته في رفق، ثم جاءها عمر بن الخطاب يريدها لنفسه، فكان نصيبه كصاحبه.

.. وبعث إليها الرسول ـ ﷺ ـ بعد ذلك، يخطبها لنفسه. وما أسعدها بأن تكون زوجة الرسول، وأن يضمها بيت من بيوت أمهات المؤمنين.

ولكنها أرسلت إليه ـ ﷺ ـ تعتذر بأنها شديدة الغيرة، فتخشى أن تغضبه بغيرتها، وأنها ذات عيال، وكبيرة في السن؟

فرد عليها الرسول قائلاً: أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فسأدعو الله أن يذهبها عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله!!

وتم زواجها بالنبي ﷺ، وأصبحت أم سلمة المهاجرة الأولى.. في عداد أمهات المؤمنين تحفظ سنّة النبي، وتروي حديثه، وتحكي هداه..

قالت أم سلمة رضي الله عنها ـ كما يروي مسلم في صحيحه ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول إنا للّه وإنا إليه راجعون. اللهم آجرني في

مصيبتي، واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها». قالت: فلما مات أبو سلمة قلتها، فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن سعد: أن أم سلمة قالت لزوجها: تعال أعاهدك ألا أتزوج بعدك ولا تتزوج بعدي، فقال أبو سلمة: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: فإذا مت فتزوجي، ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يُحزنها ولا يؤذيها. قالت: فلما تُوفي أبو سلمة قلت من هذا الذي هو خير من أبي سلمة؟ فلبثت ما لبثت، ثم تزوجني رسول الله ﷺ.

قلت: ما أروعها قصة في الوفاء الزوجي فريدة مجيدة.. هي تغار عليه حتى بعد وفاتها، فتطلب إليه أن يعاهدها على ألا يتزوج بعدها، مبادلة بالمثل حيث لا تتزوج هي بعده..

وهو لا يقل عنها وفاءً، ولا ينقص حباً، بل يربو ويزيد فهو يريد لها المأوى والحِمى من بعده، لذلك نصحها بأن تتزوج بعده، وقرن ذلك بدعاء كله إيثار ومحبة ورحمة: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني.. لا يحزنها ولا يؤذيها!!

يا له من مثال للحب والوفاء والإيثار.. فريد مجيد.

* * *

وكما كانت أم سلمة مثالية في وفائها لزوجها الأول أبي سلمة، على ما رواه ابن سعد من قصة المعاهدة الزوجية النادرة ـ كانت كذلك مثالية ـ بعد خديجـة في معاشرتها للرسول ﷺ . . فقد اعتذرت له بادىء الرأي عندما خطبها لنفسه: بأنها شديدة الغيرة، فتخاف أن تؤذيه بغيرتها، مع أن زواجها من الرسول العظيم الكريم كان مطمعاً عزيز المنال على كثيرات ـ غيرها ـ من النساء.

* * *

وحين صدت قريش رسول الله وأصحابه في مقدمه إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة، وعقد معهم صلحاً عرف باسم (هدنة الحديبية)، كان لأم سلمة موقف جليل حكيم، ورأي في هذا الحدث راشد. . لن ينساه تاريخ الإسلام المجيد.

فقد كبر في صدر أصحاب الرسول أن يرجعوا إلى المدينة، قبل أن يدخلوا مكة المكرمة، وخيل إليهم أنهم غلبوا على أمرهم. . حتى قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام: علام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فرد عليه الرسول: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني».

وأمـر الرسـول أصحابـه: أن ينحروا هـديهم، ويحلقـوا

رؤوسهم، فما قام منهم أحد: وغضب الرسول، واشتد أساه فدخل على أم سلمة شاكياً لها ما لقي من أصحابه. فقالت له يا نبي الله.. أتحب ذلك؟ اخرج ولا تكلم أحداً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك!!

وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام ـ من خيمة أم سلمة ـ وفعل بمشورتها، ونحر هديه وحلق شعره، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا هديهم وحلقوا شعورهم، وجعل بعضهم يسابق بعضاً على النحر والحلق، حتى كادوا يقتتلون همًّاً وندماً على ما فرط منهم..

قلت: ولا يحسبن حاسب أن الصحابة خالفوا أمر الرسول أو عصوه.. فمعاذ الله أن يفعلوا ذلك أو يفكروا فيه. فقد علم الله ـ في هذا الموقف الجليل ـ ما في قلوبهم من حب وإيمان وصدق في صحبتهم للرسول وافتدائهم له بأنفسهم وأموالهم، وفي نصرتهم لهذا الدين القيم بكل ما يملكون حياة وموتاً.. وحسبهم أن الله قال فيهم وفي موقفهم ذاك: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً..﴾.

* * *

وصحبت أم سلمة الرسول وأصحابه في ذلك (الفتح القريب): فتح مكة، بعد عامين من صلح الحديبية. كما صحبته في حصاره للطائف. وغزوه لهوازن وثقيف.. وحفظت حديثه، وروت سنته، وأرشدت إلى هداه.

وفي الفتنة الكبرى.. قدمت ابنها عمر إلى علي كرّم الله وجهه، معتذرة عن خروجها معه لأنها (أم المؤمنين) وذهبت إلى عائشة تلومها في خروجها على الإمام قائلة لها: «أي خروج هذا الذي تخرجين؟ الله من وراء هذه الأمة. لو سرت مسيرك هذا، ثم قيل لي: ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه علي».

رضي الله عن أم سلمة في نساء النبي الطواهر، وأمهات المؤمنين الراشدات.

فادية زوجها

شخصية هذا الفصل: سيدة فاضلة ماجدة في نساء المسلمين، بل هي سيدة كريمة وفية، بل كانت نموذجاً مشرقاً في الكرم والوفاء.

ذكرها زوجها وهو بعيد عنها يضرب في الأرض للكسب والتجارة، فقال شعراً:

ذكرت زينب لما وركت أرما
فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة
وكل بعل سيثنى بالذي علما

وذكرت هي زوجها بعد أن عادت فلول الجيش القرشي المهزوم، إلى مكة المكرمة، وخلّفت وراءها في المدينة أسرى معركة بدر. وكان منهم زوجها الحبيب. فبعثت إلى أبيها

فداءً له: (قلادة أمها) التي أتها إياها يوم عرسها، ونعمت الفادية، وأكرم بالفداء.

* *

إنها زينب الكبرى. . زينبنت محمد ﷺ، زوَّجها الرسول من ابن خالتها (أبي العاصيبن الربيع) وقد رضيه الرسول ورضيته خالته خديجة بنت خد. . زوجاً لابنتهما (زينب).

فهو أحد رجال مكة المعدبن شرفاً ومالاً، قرشي صميم، يلتقي نسبه من جهة الأب، النبي ﷺ، عند عبد مناف بن قصي، ويلتقي نسبه من جـ أمه مع زينب بنت محمد عند جدهما الأدنى خويلد بن أسابن عبد العزى بن قصي، فأمه هالة بنت خويلد أخت خديزوجة الرسول.

● وكانت خالته خديجة عاه رعاية الابن، فأتيح له أن يدخل بيت الرسول كلما أرادفيجد ترحيباً ووداً من أهل البيت الطاهر الكريم.

● وكانت (زينب) ابنة خته تلقاه كلما عاد من سفر، لقاء الأخت لأخيها، ويطيب لها ن تستمع إلى أخبار رحلاته، وما تحمل من غرائب وعجائب سجون.

ومن هنا تقدم (أبو العاي) لخطبة زينب، فرضيه الرسول

عليه الصلاة والسلام، ورضيته خديجة، ورضيته زينب نفسها عندما استأذنها أبوها في تزويجها له، فسكتت حياء.. وكان الحياء وما يزال: دليل القبول عند الفتيات الأبكار.

* * *

وزفت (زينب) إلى بيت زوجها أبي العاصي. كانت سعيدة به، وكان هو مسروراً بها. ومَنَّ الله على الزوجين القريبين الحبيبين بوليدهما الأول (علي) ثم جاءت أخته (أمامة) من بعده.. فزاد ذلك حياتهما غبطةً وإشراقاً وحبوراً..

ثم نزل الوحي على محمد بن عبد الله، وأمر بالدعوة إلى دين الله الخالد الراشد، فسارعت خديجة زوجته إلى الإيمان به، وقد عرفت من قبل بشائر نبوته، ودلائل دعوته. وكذلك أسلمت زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.. بناته الكرائم الأصيلات.

وعاد أبو العاصي من رحلة تجارية، فأخبرته زينب بالخبر اليقين عن نبوة أبيها، والدين الجديد الرشيد الذي أمر بإبلاغه، وظنت أنه سيُسرّ لذلك ويسارع إلى تصديق النبأ، وإعلان إسلامه، ولكنه استقبل الخبر بصمت وفتور.

وحاولت (زينب) أن تقنعه بالدخول في الإسلام، كما دخل فيه أبو بكر، وعثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعلي بن

أبي طالب، وكما دخلت فيه خالته خديجة. فرد عليها: والله ما أبوك عندي بمتَّهم، ولكني أكره أن يقال: أني خذلت قومي، وكفرت بدين آبائي إرضاءً لامرأتي!!

وكانت صدمة أولى لزينب ألا يدخل زوجها معها في دين أبيها. وفكرت كثيراً في ما يعنيه اختلافهما في الدين، فهي مسلمة وهو مشرك، وماذا وراء ذلك من أحداث؟ ولكنها صبرت آملة راجية في أن تنكشف الغمة، ويعقبها فرج قريب.

* * *

وشاء الله أن تتصل بعد ذلك المتاعب على زينب وعلى أبيها الكريم، وعلى البيت النبوي كله، وعلى الأصحاب والأتباع جميعاً. فقد حاصرت قريش الهاشميين وعلى رأسهم محمد الرسول، وقاطعتهم وخرجت بهم إلى شعب أبي طالب حيث عاشوا في ظل حصار اجتماعي، ومقاطعة اقتصادية، ثلاث سنوات عجاف.

ثم ماتت خديجة أمها الحبيبة.!!

ومات أبو طالب عم الرسول وحماه المنيع!!

وقد سمي عام وفاتهما عام الحزن، لأن الرسول ﷺ فقد فيه أوفى زَوجَةٍ، وأعون قريب.

وكان ما كان ـ بعد ذلك ـ من هجرة الرسول وصحبه إلى المدينة المنورة، حيث وجد الأنصار وأمْنَ الديار، ثم نشبت معركة (بدر) بين المسلمين والمشركين، وزينب ما زالت في مكة المكرمة، فاشتد قلقها، وطال همها. . ففي الأولين أبوها محمد الرسول، وفي الآخرين زوجها أبو العاصي: والد طفليْها علي وأمامة.

وتأتيها البشرى بانتصار أبيها، على قلة المحاربين معه وكثرة المشركين، فتغتبط وتهتف: (وافرحتاه). ولكنها تذكر زوجها ووالد طفليها أبا العاصي، فيعود إليها همها وقلقها، وتنتظر بقية أنباء المعركة حتى تطمئن إلى أنه بين أسرى قريش عند المسلمين.

وتبعث زينب (بقلادة) مع عمرو بن الربيع، لتفدي بها زوجها أبا العاصي، فيتقدم أخوه عمرو بها إلى الرسول ﷺ، فيعرفها ويخفق فؤاده الكريم لذكراها. . إنها قلادة زوجته العزيزة الوفية (خديجة) أم زينب، أهدتها إليها ليلة زفافها إلى أبي العاصي، فلم تجد أعز منها فديةً لزوجها الحبيب، وابن خالتها القريب.

ويصمت الرسول، وتأخذه روعة الموقف، وجلال الذكرى: ذكرى خديجة الراحلة، وابنتها الوحيدة البعيدة في مكة، فيقول

لأصحابه في رأفة وحنان: «إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا!». فيجيبوه طائعين: (نعم.. يا رسول الله).

* * *

ويعود أبو العاصي إلى مكة، إلى زوجته وأم ولديه: (زينب) التي انتظرته وطال شوقها إليه. وبينما هي تستقبله فرحة به إذ هو يفاجئها بأن أباها قد أمره بطلاقها، لأنه ما زال مشركاً وهي مسلمة فلا تحل له.

وكانت فجيعة أخرى لزينب، الزوجة المحبة التي ما فتئت ترجو أن يسلم زوجها، فيهاجر إلى المدينة معها، ويجتمع شملها بأبيها وأخَواتِها هناك.

واستسلمت زينب لقضاء الله وقدره. ولحقت بأبيها عليه الصلاة والسلام في المدينة، بعد أن لقيت من أذى قريش عنتاً شديداً فقد روَّعها (هبار بن الأسود الأسدي) حين نخس بعيرها برمحه فألقاها على صخرة هناك، فإذا هي تنزف دماً، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء.

* * *

ويفد أبو العاصي إلى المدينة ذات مرة، وهو ما زال مشركاً، بعد أن طاردته سرية من سرايا المسلمين أثناء عودته من رحلة

تجارية، فيستجير بزينب وتُجيره ويُجيره الرسول ﷺ. قالت زينب رضي الله عنها، والرسول في المسجد مع أصحابه: (أيها الناس إني أجرت أبا العاصي بن الربيع) فسمع الرسول نداءها فقال: «قد أجرنا من أجارت..».

وانصرف الرسول من المسجد إلى بيته، فوجد أبا العاصي عند زينب، فقالت لأبيها: (يا رسول الله إن أبا العاصي.. إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قد أجرته).

* * *

ثم يكشف الله كرب زينب، ويعود إليها أبو العاصي بعد ستة أعوام زوجاً مسلماً، ويلتئم شمل الأسرة الممزق، ولكن إلى أجل قصير. حيث تموت زينب بعد عام واحد من لقائها مع أبي العاصي زوجها القريب، وأبي ولدها الحبيب. وكانت وفاتها بسبب سقطتها عند مخرجها من مكة.

لقد كانت رضي الله عنها مثالاً رائعاً للزوجة الوفية الرؤوم..

ذاتُ الهجرتين[٢]

نتحدث هنا ـ في هذا الفصل ـ عن (ذات الهجرتين).

● عن الزوجة الكريمة الأصيلة، ذات الحسب والنسب، الصابرة على قسوة حماتها وأذاها صبراً جميلاً.

● عن الفتاة التي أراد حموها (أبو لهب) وحماتها (حمالة الحطب) بطلاقها من ابنهما إيلام أبيها، ومكايدة أمها، وأرادت قريش بهذا الطلاق أن تشغل محمداً ـ ﷺ ـ بالحزن والأسى ـ على قضية ابنتيه: رقية وأم كلثوم.

لقد جاء وفد من آل عبد المطلب، يتقدمه أبو طالب يخطب من الرسول ﷺ: ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدي عبد العزى (أبي لهب): عتبة وعتيبة.

ولم يكن محمد قد بُعث رسولاً، ولا أعلن دعوته إلى عبادة الله وحده بعد. ووافق الرسول على الخطبة، واستمهل الوفد

حتى يتحدث في أمرها إلى ابنتيه العزيزتين، ويرى رأي أمهما خديجة رضي الله عنها، وما كانت خديجة لتخالف الرسول في أمر أو رأي وهي تعلم ـ مع ودها وطاعتها له ﷺ ـ أن الخاطبين هما ولدا عبد العزى بن عبد المطلب، عم الرسول، ومن فتية بني هاشم الأمجاد، ولهما في بني عبد شمس الخؤولة، وأصالة النسب، فأمهما هي (أم جميل) بنت حرب بن أمية ابن عبد شمس.

ولكن خديجة ـ مع ذلك ـ كانت تحذر أم جميل هذه التي ستكون حماة لابنتيها الحبيبتين، وستنتقلان إلى بيتها لتعيشا مع زوجيهما عتبة وعتيبة، ابني أبي لهب، وأم جميل.

* * *

كانت خديجة تخشى أم جميل هذه، لما تعرفه فيها من شراسة الطبع، وقسوة القلب، وسلاطة اللسان، وصلف النفس، وطيش الخلق.. فهي لذلك تشفق على ابنتيها الوديعتين المهذبتين: أن تعاشرا مثل هذه الحماة الشرسة اللدود.

ولو كان الأمر بيدها لما تم زواج ابنتيها من عتبة وعتيبة، ولكنه تم لأمر قدره الله، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العليم الحكيم.

وزفت العروسان الكريمتان إلى أشأم بيت، والأم حماة، ولقيتا

من أم جميل ـ حمالة الحطب كما وصفها القرآن فيما بعد ـ كل ما يؤذي ويسوء، وصدق ظن خديجة في هذه الحماة اللئيمة، فلم تلبث رقية وأم كلثوم طويلاً حتى رُدَّتا إلى بيت أبيهما طالقتينْ!

وكان إلى جانب سوء أخلاق أم جميل: سعي أعداء الرسول ﷺ، إلى أبي لهب، وحثهم إياه على طلاق ولديه لابنتي الرسول.. حتى يشغله همهما عن الدعوة التي أعلنها في مكة، فأثار بها صلف قريش وكبرياءها، حتى ازدادت إصراراً على عبادة الأوثان، واتباعاً لتقاليد الآباء والأجداد.

* * *

ولم يكتم أبو لهب، وزوجه أم جميل عداءهما وعدوانهما للرسالة والرسول.. بالقلب واليد واللسان، فراحت أم جميل تضع الأشواك في طريقه، وهمت مرة أن تضربه على فمه بحجارة جمعتها في كفها، وهو جالس مع صاحبه أبي بكر عند الكعبة، ولكن الله صرف بصرها عنه فلم تره، فرجعت خاسرة مخذولة.

أما إيذاء أبي لهب للرسول ﷺ، فحسبنا أن الله قد أنزل فيه وفي أم جميل معه سورة تتلى على مدى الأجيال: ﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾.

وندع الحديث عن أبي لهب وأم جميل، وما فعلاه بالرسول وابنتيه، وما استحقاه من لعنة خالدة تالدة.

ونتم الحديث عن (رقية) ابنة محمد ﷺ. فقد عوضها الله خيراً من ابن أبي لهب.. عوضها عثمان بن عفان زوجاً صالحاً كريماً، من النفر الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. ثم هو من أعرق فتيان قريش نسباً وحسباً.. حيث يلتقي مع النبي ﷺ - من جهة الأب - في عبد مناف بن قصي، ومن ناحية الأم عند عبد المطلب، جد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكان عثمان - زوج رقية الجديد - مع هذا النسب الماجد: بهي الطلعة، رضي الخلق، موفور المال.

* * *

وهاجرت (رقية) مع عثمان إلى الحبشة، بعد أن اشتد أذى المشركين لهم، وفارقت أبويها مرة أخرى فراقاً أبعد وأطول.

ولكن خفف من أسى رقية وحزنها أنها وجدت فيمن هاجر إلى الحبشة مهاجرات مثلها. وجدت أسماء بنت عميس، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة ثم كان إكرام الحبشة ونجاشيها (أصحمة) للمهاجرين والمهاجرات، وإحسانه

وفادتهم، ورفضه هدايا قريش التي بعثت بها عمرو بن العاص ورفيقه إليه، لكي يطرد المسلمين من دياره.

ورد الله كيد المشركين في نحورهم، لم ينالوا خيراً.

ثم عادت (رقية) إلى مكة فرحة برؤية البيت الكريم الذي فارقته كرهاً، وسرت بلقاء أبيها المشتاق إليها، وكذلك كان أنسها بأختيها أم كلثوم وفاطمة بالغاً. ولكنها فجعت بفقد أمها الرؤوم (خديجة) فقد ماتت، وهي في الحبشة، فراحت رقية تبكي بكاءاً مريراً.

وهاجرت ـ بعد ذلك ـ هجرتها الثانية إلى المدينة، مع زوجها عثمان رضي الله عنهما، وولدت له طفلاً ملأ عليهما وحدتهما بهجة وأنساً. ثم استرد الله وديعته منهما لحكمة يعلمها.

لقد تتابعت على (رقية) الأحداث الفادحة.. فلم تدع لها جسداً يحتمل الحياة، فمرضت. وظل زوجها الوفي إلى جانبها حتى قضت نحبها راضية مرضية، ومضت إلى لقاء ربها.. مثلاً للزوجة الصابرة المهاجرة، ونموذجاً مشرقاً للفتاة الطاهرة الودود.

الصَالحة الناصحَة

كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يمشي في إحدى طرق المدينة، ومعه بعض أصحابه، فاستوقفته (عجوز) وقالت له:

* كنا نعرفك عُمْيراً...

* فأصبحت بعد عمير عمَر..

* ثم أصبحت من بعد عمرَ أمير المؤمنين..

* فاتق الله يا عمر فيما أنت مستخلف فيه..

وبكى عمر لمقالة العجوز، وتأثر لبكائه بعض أصحابه، واستكثر أن تستوقفه امرأة في الطريقة، لتذكره بماضيه شاباً، فرجلاً، فأميراً للمؤمنين ـ فقال لها: على رسلك أيتها العجوز لقد أبكيت أمير المؤمنين!!.

فانتبه عمر لمقالة صاحبه، وراح يزجره عنها قائلاً: (أسكت أتعرف من هذه؟ إنها خولة بنت ثعلبة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، فعمر أحرى أن يسمع لها).

إذن فهذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، والتي أصغى إليها (عمر) أمير المؤمنين، ووقف لها وهو سائر في طريقه مع بعض صحابته، واحتمل منها ما قالته عنه.. من أنه كان عميراً، فأصبح عمر، ثم غدا من بعد ذلك أميراً للمسلمين، وبكى لقولها: اتق الله يا عمر فيما أنت مستخلف فيه.

امرأة من عرض الناس، كانت تستطيع أن تستوقف أقوى حاكم مسلم في أزهى عصور الحكم الإسلامي وأعدلها وأفضلها، لتذكره بماضيه.. يوم كان صبياً أو شاباً ثم غدا رجلاً، ثم أصبح حاكماً لأمة محمد ﷺ، لا سخرية وازدراءً ولا تنابزاً بالألقاب، وإنما لتنصحه في رعاية الأمة بالتقوى، فيبكي ويتقبل النصيحة، لا يستكبر ولا يستدبر.

* * *

أجل.. إنها خولة التي تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ فيما أخرجه البخاري والنسائي من قصتها ـ: الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة إلى

رسول الله ﷺ، في جانب البيت، تحدثه ما أسمع ما تقول. . فأنزل الله عز وجل: ﴿لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما. إن الله سميع بصير﴾.

* * *

ولنستمع إلى قصة (خولة) تتحدث هي عنها، قالت: (فيَّ ـ والله ـ أنزل الله صدر سورة المجادلة. لقد كنت زوجاً لأوس بن الصامت، وكان شيخاً كبيراً. . قد ساء خلقه، فدخل عليّ يوماً، فراجعته بشيءٍ. . فغضب وقال: أنت عليّ كظهر أمي. ثم خرج إلى نادي قومه، فجلس ساعة ثم عاد ودخل علي يريدني عن نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خولة بيده لا تخلص إلي، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه).

وخرجت خولة من دارها نافرةً إلى بعض جاراتها، لتستعير منها ثياباً. ثم أقبلت على رسول الله ﷺ فجلست بين يديه تذكر له ما لقيت من زوجها (أوس) ثم جعلت تشكو إلى النبي: سرعة غضبه، وسوء أخلاقه، وكان النبي يقول لها: «يا خولة. . ابن عمك شيخ كبير. . فاتق الله فيه».

قالت خولة (. . . فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن. فقال ﷺ: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً. ثم

قرأ: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها، وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما. إن الله سميع بصير﴾ إلى آخر الآيات من صدر سورة المجادلة، التي فصلت حكم الظهار.

● وقال الرسول ﷺ لخولة:

- «مريه فليعتق رقبة».
- قالت: (يا رسول الله: ما عنده ما يُعتق!).
- قال: «فليصم شهرين متتابعين».
- قلت: (والله إنه لشيخ ما له من صيام!).
- قال: «فليطعم ستين مسكيناً».
- قالت: (يا رسول الله ما ذاك عنده!).
- قال: «فإنا سنعينه بعرق من تمر».
- قالت: (وسأعينه بعرق آخر!).

● قال ﷺ: «أصبت وأحسنت، فاذهبي وتصدقي به عنه. ثم استوصي بابن عمك خيراً!».

* * *

وفي روايات أخرى: أن الرسول ﷺ كان يقول لها: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، فكانت تراجعه وتحاوره، وتقول له: يا رسول الله إن لي منه صبيةً صغاراً إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا - ثم تتوجه إلى الله رافعةً بصرها إلى

السماء، تشتكي إليه حالها، فنزل ما نزل من قرآن بسببها.

وقد جاء تعبير القرآن مؤكداً ذلك في قول الله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها، وتشتكي إلى الله..﴾.

وقد لطف الله بها وبأولادها الصغار، وبزوجها الشيخ، فأنزل في قصتهما قرآناً يتلى على مر الدهور والعصور، وفيه حكم الظهار وكفارته.. وأنه من أخطاء (الجاهلية) وآثامها وأباطيلها: ﴿الذين يظاهرون من نسائهم.. ما هُنَّ أمهاتهم. إن أمهاتهم إلا اللائي ولَدْنهم، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً. وإن الله لعفو غفور﴾.

ثم لطف بها الرسول ﷺ، فتصدق على زوجها بما يكفر به عن ظهاره، وتعود بذلك الأسرة التي أوشكت أن تتمزق إلى شملٍ جميع.

* * *

إن (خولة بنت ثعلبة): نموذج المرأة الصالحة، ومثال الزوجة الوفية..

فقد ردت زوجها عن نفسها، حتى تعرف حكم الله ورسوله في قوله: «أنت عليَّ كظهر أمي» وهي عادة جاهلية كانت المرأة تحرم بها على زوجها دون أن تطلق منه، بل تبقى هكذا معلقة

لا هي مطلقة فتجد لها طريقاً إلى زواج جديد، ولا هي حلال لزوجها يعاشرها بالمعروف المألوف من علاقات الزوجية وحقوقها وواجباتها.

ثم هي بعد أن قال لها الرسول ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمت عليه»، وقبل أن ينزل الوحي بالفصل في قضيتها، كانت حريصة كل الحرص على بيتها ألا ينهدم، وعلى أولادها ألا يضيعوا، وعلى زوجها ألا ينفصل عنها على الرغم من شيخوخته وأخلاقه الشِّداد!

وكما كانت خولة مثال المرأة المؤمنة التقية، ونموذج الزوجة الحريصة الوفية ـ كانت أيضاً صورة رائعة للمسلمة الجريئة الناصحة.. حين استوقفت عمر بن الخطاب، وهو يومذاك أمير المؤمنين، لتنصحه بالتقوى فيما استخلفه الله عليه من شؤون المسلمين ومصالحهم. وهو من هو عدلاً ويقظةً وحرصاً على سلامة رعاياه، وشدةً في الأخذ على يد الظالم، وإنصاف المظلوم.

* رضي الله عن (عمر) في الخلفاء الأتقياء!!
* ورحم الله (خولة) في الزوجات الصالحات!.

الناقمة التائبة

النموذج الذي نقدمه هنا، لامرأة.. كان أبوها عظيماً.. وزوجها زعيماً.. وابنها ملكاً..

امرأة.. كانت عدواً لدوداً للإسلام ورسوله، ثم أسلمت، فأذاب الإسلام أحزانها وأضغانها، وغدت في عداد المؤمنات الصادقات..

جاءت إلى الرسول ﷺ مؤمنة به، مبايعة له، وهي تعتذر عن أمسها البغيض: (والله يا رسول الله، ما كان على الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من خبائك.. وقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من خبائك).

* * *

لقد افتقدت (هند) في معركة بدر أباها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة، وابنه البكر (الوليد)؛ فهالها الخطب الفادح،

وأثـار حفيظتهـا الحدث الأليم، واشتعـل قلبها حقـداً على المسلمـين، وجعلت توغـر صدور قـريش، وتحرض رجـالها ونساءها على الانتقام، والأخذ بالثأر لقتلاهم في (بدر).

حتى بلغ بها الأسى والالتياع أن تفاخر (الخنساء) في موسم عكاظ، بفقدها لأبيها عتبة، وعمها شيبة وابنه الوليد.. فتقول لها حين لقيتها: (أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة)..

ثم تنشدها شعراً تمجّد قتلاها به:

أبي عتبــة الخيـرات ويحـك فـاعلمـي
وشيبــة، والحــامي الــذمــار وليــدهــا
أولئــك آل المــجــد مـن آل غــالــب
وفي العـز منهـا حــين ينمى عـديـدهـا

فقاولتها الخنساء فخراً بفخر، وشعراً بشعر.. ذكرت فيه مصابها بعمرو بن الشريد، وأخويها صخر ومعاوية..

* * *

ثم جاءت (هند) إلى أحُد في موكب النساء، وهن يضربن بالدفوف، ويهتفن بالأبطال، ليأخذوا بالثأر من أصحاب محمد، وتَنادَى الفريقان إلى الحرب.. وكـانت موقعـة (أحُد) بـين المسلمـين والمشـركـين.. ولا تكـاد (هنـد) تـرى حمـزة بن

عبد المطلب، عم الرسول وقاتل أبيها وعمها في (بدر) يصول ويجول في ميدان المعركة الثانية شجاعاً مقداماً.. حتى تثور أضغانها وتشتعل أحزانها، وتحرض (وحشي) على قتله، فيغتاله على حين غرة.. ويجتمع الموتورون من قريش على جثته رضي الله عنه، وفي مقدمتهم (هند).. يمزقونها ويمثلون بها، وينتزعون كبده من أحشائه فتأخذ (هند) فلذة منها فتلوكها تشفياً، ثم تلفظها. وقد سميت لفعلتها هذه: «آكلة الأكباد»..

* * *

إن هند بنت عتبة هذه قد شرح الله صدرها للإسلام بعد الذي فعلته من إثارة وتحريض على المسلمين، ومن تنكيل بأسد الله (حمزة) وتمثيل به..

وما إن علمت بأن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد عفا عنها، حتى جاءته مبايعة له، وهي تقول:

● (يا رسول الله.. إني أحمد الله الذي أظهر الدين، لتمسني رحمتك.. لقد جئتك مؤمنة مبايعة)..

فترفق بها الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم، وقال لها: «مرحباً بك يا هند..» فقالت:

● (والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا

من خبائك. . ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من خبائك).

وازداد قلب (هند) بعفو الرسول ﷺ وصفحه عنها: رحمة وإيماناً، وأبدلها الإسلام بجاهليتها الضالة هدىً ورشداً وإحساناً، فكانت تغشى مجلس الرسول في اليوم المخصص للنساء، تستمع إلى حديثه الهادي، وتعليمه المرشد، وتوجيهه السديد، وتسأله مع النساء عما يستغلق عليهن من مسائل الدين، ومشكلات الحياة. .

سمعت (هند) الرسول ذات مرة يأخذ البيعة على بعض النساء: «ألاَّ يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن» فقالت: (إنك يا رسول الله لتأخذ على النساء ما لا تأخذ على الرجال). . ثم أضافت: (إني كنت أصيب من مال أبي سفيان ـ وكان زوجها حاضراً ـ دون علمه). . فرد عليها أبو سفيان: (ما مضى فأنت منه في حل) وانتهزت (هند) هذه الفرصة فقالت: (وإن أبا سفيان لا ينفق علي وعلى ولدي عن سعة) فقال لها الرسول عليه الصلاة والسلام: «خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف».

* * *

إن الإسلام ـ كما قال الرسول الكريم ـ يَجُبّ ما قبله ولقد غدت (هند) بعد إسلامها من المسلمات الصوادق، ومضت وزوجها أبو سفيان من المجاهدين في سبيل الله.

وكان ابنها معاوية من كَتَبَة الوحي الذي نزل على الرسول العظيم ـ ﷺ ـ وهو الذي أسس دولة بني أمية على العروبة الخالصة، وكان هو وخيار أمرائها من بعده مفاتيح نصر ونشر للإسلام وبركة وخير للمسلمين ـ وحسب (هند) فخراً أنها أنجبت معاوية الداهية الحليم.

أم الشهداء

ألممنا إلمامة عاجلة ـ في حديثنا عن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ـ (بالخنساء) الشاعرة العربية، التي خلدها شعرها المعجب المطرب في الجاهلية، ثم خلدها ـ في الإسلام ـ إيمانها الصادق، وحثها لأبنائها الأربعة، على الجهاد في سبيل الله، ثم صبرها الجميل عندما بلغها استشهادهم جميعاً في معركة القادسية فاحتسبت ذلك شرفاً عظيماً، وحمدت الله عليه.

ونستوفي ـ هنا ـ الحديث عن الخنساء أم الشهداء لنعرض شيئاً من حياتها في الجاهلية، وبعضاً من حياتها في الإسلام كنموذج للمرأة العربية الحرة الأبية، والمسلمة الشجاعة الصبورة.

هي: تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية المضرية. كانت من أعز البيوت العربية نسباً، وأكرمها حسباً. اشتهرت بشجاعة

أبنائها، وكرم أخلاقهم، وفصاحة ألسنتهم، والإجادة في قول الشعر.. وكان للخنساء أخوان: (معاوية وصخر) تخصهما بحب غامر، واعتزاز كبير.. إذ كانا من أشجع فتيان العرب، وأفصحهم لساناً، وأنضرهم وجهاً، وأرضاهم أخلاقاً.

وقد قتل (معاوية) في معركة مع بني مرة. ثم مات (صخر) متأثراً بطعنة رمح، فظلت الخنساء الأخت المحبة الوفية: باكية والهة، ملتاعة عليهما حتى ملأت دنيا العرب وأسواقهم الأدبية بمراثيها الدامعة الرائعة. ومن شعرها في رثاء أخيها (صخر) قولها:

وإن (صخراً) لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

وقولها أيضاً:

يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على موتاهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

* * *

لقد بكت (الخنساء) طويلاً، قبل إسلامها، حتى إذا قدمت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، مع بني قومها مبايعة مؤمنة.. هوّن عليها خطبها، وأبرد باليقين قلبها فخرجت من

عند الرسول ﷺ ممتلئة الصدر إيماناً وصبراً. ولكنها ظلت راثية أخويها باكية عليهما، من غير أن تلطم خداً، أو تشق جيباً، فقد حرّم ذلك عليها الدين الجديد الذي دخلت فيه..

حتى كان عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقدمت عليه وبكت عنده أخاها (صخراً) فزجرها عمر.. وقال لها: (إن الذين تبكين هلكوا في الجاهلية. وهم حطب جهنم) فقالت الخنساء لعمر: (ذلك أطول لحزني.. إذ كنت أبكيهم للثأر، واليوم أبكيهم للنار..)، وعادت إلى البكاء بين يدي عمر، فرق لها رضي الله عنه. والتفت إلى الصحابة وقال لهم: دعوها وشأنها..

* * *

وخرجت الخنساء من عند (عمر) إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فبثتها أحزانها، وشكت إليها أشجانها فوجدت عندها عزاء وسلوى، وازدادت من حديث عائشة صبراً وتقوى. وراحت الخنساء بعد ذلك تشارك المسلمات في نشر الإسلام والجهاد في سبيله حتى دفعت بأولادها الأربعة في معركة واحدة وفي وقت واحد..

تلكم هي حرب القادسية، في العام الرابع عشر الهجري وقد حضرت الخنساء مع أولادها الحرب.. تحثهم وتشحذ

عزائمهم، وتثير حماستهم. . قائلة:

● (يا بني. . إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة. . ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، ولا خنت أباكم. . وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ـ واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية. . فاصبروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ـ يا بني إذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سباقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة).

واندفع أبناء الخنساء الأربعة، وخاضوا المعركة في شجاعة وإيمان، وانتصر المسلمون على الفرس، واحتسبت الأم المؤمنة القانتة الصبور أولادها الأربعة شهداء أبطالاً أبراراً، وقالت كلمتها الخالدة:

● (الحمد للّه الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته).

* * *

يا لروعة الإسلام، وقوة الإيمان، وجمال الصبر: لقد ملأت الخنساء الدنيا بكاءً ولوعة على أخويها معاوية وصخر، في

جاهليتها وبداية إسلامها. حتى بين يدي الرسول ﷺ، وبين يدي عمر أنشدت بعض شعرهـا في رثاء أخـويها الحبيبـين العزيزين، ولم تكف عن البكاء عليهما.

ثم ينقلب هلعها وجزعها إلى إيمان وصبر، فتدفع أولادها الأربعة إلى القتال والاستشهاد، وتقول عندما يبلغها نبأ قتلهم في فرحة غامرة وصبر جميل: (الحمد للّه الذي شرّفني بقتلهم).

لقد كانت الخنساء: مثال المرأة الحرة الكـريمة، والأخت المحبة الوفية، والزوجـة الأبية الأمينة، والأم الحازمة المعوِّدة لأولادها على الخير والصبر والإيمان.

خالـدة الذكـر

ما يزال الناس يذكرون اسمها على ألسنتهم بالحمد والمجد، لا لأنها كانت في عداد الملكات المسلمات الحصيفات فحسب، وإنما لأنها عملت عملاً راشداً خالداً حتى الآن، إلى ما شاء الله لعملها من خلود

لقد نشأت في قصور الخلفاء طفلة وشابة، وورثت المجادة والسعادة من سلائل قريش وهاشم.. فجدها أبو جعفر المنصور، وعمها المهدي، كانا يغمرانها بالدلال والحنان، منذ طفولتها. وكان أبو جعفر المنصور لفرط حبه لها، وإعجابه بنضارتها وجمالها يلاعبها ويناديها: (أنت كالزبد بيضاء.. بل أنت زبيدة)، فعرفها الناس بهذا الإسم الذي أطلقه عليها جدها المنصور، أما اسمها الأول فهو (أمة العزيز).

وخُطبت (زبيدة) للفتى هارون الرشيد وزفتها الوصائف والجواري في أحسن جلوة بين خفق الصنوج، وضرب الدفوف

إلى فتاها الرشيد، وتلألأ قصر المهدي ـ ليلتذاك ـ بزينة فريدة، وبدت على أهل القصر وضيوفه الفرحة الغامرة.

ووجد الرشيد في (زبيدة) الزوجة الفطنة الرزان، الوفية الودود. وكان لها في قلبه مكان كبير اتسع لنصحها وشوراها عندما استوى على أعظم عرش عرفه تاريخ العرب في تلك العصور.

ومرت أعوام معدودات كان الرشيد وزبيدة أسعد زوجين، وأكرم رفيقين.. إلى أن دخلت قصره الجواري المُهـدَيات، والقيـان المشترَيـات.. وفيهن حسان من قصـور الأكـاسـرة والقياصرة، وجدن في كرم الرشيد وترفه مجالاً ومربعاً لهن. فضاق صدر (زبيـدة) بهن، ولكنها احتملت وصـابرت مـا استطاعت، على غيرتهن وتنافسهن على قلب الرشيد..

إن صبرها الجميل هداها إلى عمل جليل.. فقد اتخذت من جواريها مئة علمتهن القرآن الكريم، وكان يسمع لترتيلهن في قصرها دوي كدوي النحل. فكانت (زبيدة) تجد في الاستماع إلى آيات القرآن أمناً وبرداً وسكينة.

* * *

ومات هارون الرشيد، سنة الله في الكبار والصغار، وتولى ابنها الأمين الملك بعد أبيه.. ولكن الفتنة اللعينة أثارها الأعداء

الذين يرتدون مسوح الأصدقاء، فاشتعلت نار العداء والصراع بين الأخوين (الأمين) و (المأمون) وهو أخوه لأبيه. .

وكانت زبيدة تدرك بفطنتها أن عاقبة السوء لا بد مدركة أحد الأخوين. وهي وإن كان الأمين ابنها العزيز عليها، الحبيب إليها. . إلا أنها لا تريد أيضاً أن يلقى المأمون مصيراً لا ترضاه للأمين. .

وكانت كذلك تعتقد ـ وهي على حق ـ أن الأمين أحق بالخلافة، وأنه هو الظافر في صراعه مع أخيه المأمون، ولذلك أوصت القائد (علي بن عيسى) الذي خرج لقتال المأمون: أن يعرف للمأمون حقه على أخيه الأمين، فلا يقسو عليه، في كلام أو معاملة. .

ولكن ظن (زبيدة) قد خاب. . وكان القتيل في صراع الأخوين هو الأمين ولدها الحبيب العزيز ولم يكن للمأمون يد في قتله، وإنما طاش سهم أحد قادته فأرداه قتيلاً. .

ودخل المأمون على زبيدة، يعتذر إليها، ويقدم لها العزاء في أخيه الأمين قائلاً لها: (يا ستاه. . لا تحزني فإني لك عوض الأمين) فردت عليه رداً حصيفاً: (كيف لا آسى على ولد خلف أخاً مثلك؟!)، وراحت تبكي بمرارة وحرارة، حتى أبكت

المأمون. وعاشت بعد ذلك آسية حزينة في حداد دائم على ابنها الشهيد.

* * *

ثم وجدت (زبيدة) أحسن عزائها، وأجمل صبرها، وأفضل سلواها في الحج بعد الحج إلى بيت الله الحرام، إلى مهبط الوحي، ومنزل القرآن، وأرض الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام..

ولاحظت (زبيدة) الناس والحجيج في مكة ظماء إلى الماء، عطاشاً إلى قطرة منه.. يشترون الراوية منه بدينار! فتأسى لذلك وتبكى، وتحلف صادقة أن تبذل كل ما تملك لتوفر الماء لسكان أم القرى وحجاجها، في عامها القابل، وتدعو الله أن يشمل مسعاها بالتوفيق.

حتى إذا عادت إلى العراق، دعت أقدر البنائين والحفارين، وحدثتهم بمأساة الماء في مكة. ثم بعثت بالمهندسين والعمال لينشئوا مجاري للماء في أعطاف الصخور، وأجرت عين حنين إلى مكة المكرمة، كما أجرت عين وادي نعمان إلى عرفات. وكلفها هذا العمل الصالح الخالد قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، وقد ذهبت دونه الخزائن والثروات، وبقي هذا الأثر الخالد على

الزمان يحمل إسم زبيدة ناطقاً بفضلها، شاهداً على إيمانها، وتذكاراً لإحسانها.

* * *

لقد كانت (زبيدة) ملكة رشيدة.. ثم غدت أماً صابرة على قتل ولدها (الأمين) في معركة خاسرة مع أخيه (المأمون) ولكن اسمها خلد على الزمان، وإن مضت كما يمضي الناس، أو ماتت كما يموتون ولا يخلفون وراءهم من (الإحسان) ما يستحق الرضوان.

العابدة الزاهدة

هذه السيدة.. كانت مثلاً بارزاً، في سيرة النساء الصالحات العابدات، القانتات، الزاهدات.. بل كانت تفوق نساء زمانها: زهداً وتقوى، وفضلاً ومعرفة، وعلماً وأدباً.. حتى رنت إليها الأنظار رضاً، وتطاولت إليها الأعناق عجباً..

وكان يرتاح لزيارتها وصحبتها عدد من الأتقياء، وطائفة من العلماء، الذين يجدون في صلاحها وتقواها ودوام تعبدها للّه عز وجل - راحة نفس، ومتعة فؤاد، وتذكيراً بالله وحقه على عباده من ذكر دائم، وعبادة موصولة، ولقاءٍ روحي مستمر..

* * *

إنها (رابعة) العدوية.. التي عاشت نحو ثمانين عاماً.. وقد توفيت عام ١٣٥ للهجرة، وكانت تدعى (أم الخير بنت إسماعيل)..

مات أبوها (إسماعيل) في باكر عمرها. . فنشأت في زمن استحكمت فيه أزمات القحط والغلاء في البصرة ـ وأوقعها سوء حظها في أسر رجل ظالم، احتبسها عنده فترة من الزمان، ثم باعها إلى رجل آخر. . لم يكن أفضل من سابقه معاملة لرابعة، ولا أقل قسوة عليها؛ ولكنها صبرت وصابرت، حتى جعل الله لها من كربها فرجاً، ومن ضيقها مخرجاً. .

* * *

استمع سيدها ـ ذات ليلة ـ إلى صوت ينبعث من غرفتها، فنهض من سريره، ووقف ينظر من بابها إليها، فرآها عابدة خاشعة، تدعو للّه وتتضرع إليه، وتناجي ربها بكلمات. . تعتذر بها إليه سبحانه عن تقصيرها في عبادته، وقعودها عن ذكره، وتبثه عز وجل شوقها إلى عبادته وذكره أكثر مما فعلت، وتشكو إليه تبارك وتعالى عجزها عن الوفاء بحقوقه. . لأنها أسيرة لا تملك من أمر نفسها شيئاً، فليعذرها الرب الغفور الرحيم. .

فأدركت سيدها رحمة ورأفة بها، وملأ نفسه إعجاب بصلاحها وتقواها، وطرب بحسن عبادتها وذكرها، فعزم على أن يطلق سراحها من ذل الأسر، ابتغاء للمثوبة والأجر. .

وعندما وقفت (رابعة) بين يدي سيدها في اليوم التالي. .

فوجئت به يقول لها: أنت حرة يا رابعة، ولك الخيار بين المكث هنا، والذهاب إلى حيث تشائين..

ولم يطل تفكيرها، أو يتردد عزمها، فقد اختارت الحرية الكاملة، وتركت دار سيدها، لتعيش من عمل يدها، وتفرغ للعبادة حرة من كل قيد، طليقة من كل سلطان..

* * *

جاءها يوماً أحد الصوفيين المعروفين، يشكو إليها من حال الدنيا، وتحدث كثيراً عن بلائها وفنائها.. فلم يعجب (رابعة) كلامه، ولم تطق شكواه، وقالت له تؤدبه وتعلمه حقيقة التصوف:

● (إنك يا هذا تكثر من ذكر الدنيا، وترددها على لسانك، فأنت يا هذا إذن مفتون بها، مشغول بمحاسنها.. ولو أنك قطعت صلتك بالدنيا لما تحدثت عن محاسنها أو مساوئها)..

ومن غرائب أحوالها، وعجائب قناعتها وزهادتها: أنها كانت ترد كل ما يعطيها الناس وتقول: (ما لي بالدنيا حاجة)، وقالت مرة لمن جاءها بعطاءٍ سخيٍ:

● (ألا تعلم أن الله يرزق حتى عباده الذين هم عنه لاهون.. فما بالك بمن له ذاكرون؟ وكيف أقبل هديتك، وأنا

لا أعلم هل اكتسبت مالك من حلال أم من حرام؟).

* * *

وسئلت (رابعة) ذات يوم: هل يتوب الله عز وجل حقيقة على عباده النادمين؟ فأجابت:

● (إن الله لم يعط الندامة، لعباده إلا ليتوبوا.. فما دام قد أشعرهم بالندامة، وألقى إليهم حسن التوبة.. فقد ضمن لهم واسع الغفران).

● ومن كلماتها الحكيمة: (إن الله رازق الأغنياء.. يهون على الفقراء حاجاتهم، ويلهمهم القناعة والصبر).. وقالت يوماً لبعض زوارها من أهل الفضل: (إنما يشغل بالي ثلاثة أمور.. أولاً: هل أموت على إيمان كامل؟ الثاني: هل أنال صحيفتي بيدي اليمنى يوم الحساب؟ الثالث: لا أدري مع أي فريق أكون يوم الحشر. أمع الذاهبين إلى الجنة أم مع الهالكين في النار؟).

لقد أفنت (رابعة) حياتها في العبادة، وتربية النفس على الصلاح والتقوى، وكبح جماح الشهوات والأهواء ـ فكانت رحمها الله نموذجاً فريداً في النساء المسلمات العابدات الزاهدات، القانتات الصالحات.

الفَارس المُلثم

في تاريخ الجهاد الإسلامي كان هناك نماذج مشرقة من النساء المسلمات اللاتي كن يخرجن مع الرجال، فيسرن خلف الجيوش، ويقمن بخدمة رجالهن، فإذا حمي الوطيس، واشتبك المجاهدون المسلمون مع أعدائهم في قتال مرير ـ بقيت النساء في المؤخرة، يسقين العطشى، ويسعفن الجرحى، ويحرضنهم على الثبات.

* * *

ومن هذه الأمثلة النسائية الإسلامية الرائعة (خولة بنت الأزور).. كانت حياتها حافلة بالحمية، مشرقة بالفروسية، تشارك المسلمين والمسلمات الجهاد في سبيل الله، فأبلت بلاءً حسناً في بلاد الشام حين فتحها المسلمون في خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، وامتدت حياتها إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فشهدت عدداً من الوقائع والخطوب، وكان لها

جهاد وعناد يثيران الدهشة والإعجاب والإكبار، في محاولاتها لإنقاذ أخيها (ضرار) من أسار الروم . .

كان سيف الله خالد بن الوليد . . يسير بكتائبه الفاتحة إلى (أجْنادين) من فلسطين، لملاقاة الروم، الذين زحفت جيوشهم الهادرة بقيادة (تيودور) من شمالي الشام لتأخذ الطريق على العرب الفاتحين الذين هبوا لجهاد الأعداء، ونشر دين الرحمة والعدل والإخاء . .

وكان في قادة هذه الكتائب العربية المسلمة المجاهدة الداعية إلى دين الحق - ضرار بن الأزور . . سليل الملوك والأمراء، وبطل المعارك والحروب، المعدود بألف فارس لشجاعته الباهرة، وفتكه الجبار.

ولكن قدر الله العليم الحكيم . . أوقع ضراراً في أسر الروم. فغضب خالد بن الوليد لأسر أحد قواده الأبطال، ونهض في جنده لاستخلاص ضرار من اساره الذي لم يكن يخطر على بال . .

وسارت كتائب خالد، ماضية في طريقها نحو الروم، فإذا (تيودور) القائد الرومي يطلع على جند الإسلام بجيشه اللجب، ويحتدم القتال بين الفريقين، ويفاجأ الروم بفارس عربي ملثم، يطاعن وينازل، ويصرع المشاة والركبان، كان يقذف بنفسه لا يبالي، ويضرب بسيفه لا يخاف . .

حتى القائد الإسلامي (خالد) تعجب لأمر هذا الفارس المقنع الذي يصول ويجول، ويضرب ويفتك، دون تردد أو التفات. .

وطال تساؤل خالد ورفاقه من قادة وجنود: عن الفارس العربي الملثم؟ حتى برز لهم، فأحاطوا به يسألونه: من هو؟ وما اسمه؟ فأعرض عنهم. ولكن خالداً ألحّ عليه أن يكشف عن شخصيته. . وهنا تفصح (خولة) عن نفسها وتقول:

● (أيها الأمير. . إني لم أعرض عنك إلا حياءً منك؛ فأنت أمير جليل، وأنا من ذوات الخُدُور، وربات الستور. . وإنما حملني على ما رأيت أنِّي محرقة الكبد زائدة الكمد. . أنا خولة بنت الأزور، كنت مع نساء قومي، فأتاني آت بأن أخي ضراراً أسير، فركبت وفعلت ما رأيت. .).

وأحزن خالداً وأعجبه ـ في وقت واحد ـ أن تخرج امرأة من ذوات الخُدور، وربات الستور، مجاهدة معاندة لاستنقاذ الأسير، من يد العدو الحقير.

لقد أقسم خالد أن ينقذ ضراراً من الأسر، فأمر جيشه بالاستعداد لمواجهة الروم كرة أخرى، واستأنف العرب الجهاد، وحملوا حملة واحدة حتى انكشفت المعركة عن انهزام العدو وانتصار المسلمين في موقعة أجنادين. وعاد ضرار بن الأزور من

أسر الروم حراً طليقاً، يشارك قادة الجيش الإسلامي فرحته بالنصر المبين.

* * *

وعادت الحرب بين العرب والروم مرة أخرى في (مرج دابق) وتفقد خولة أخاها ضراراً للمرة الثانية، حيث يقع أسيراً في أيدي العدو. فيشتد أساها، ويعظم كربها، وتنشد شعراً تبكي به ضراراً، وتحث جند الإسلام على الثأر من الروم، لاستخلاص أخيها من أسرهم.

وانضم إليها بعض النسوة اللاتي افتقدن رجالهن أسارى ـ مثل ضرار ـ عند الروم.. يرددن معها الأناشيد والأهازيج لتحريض الجند على القتال، واقتحام حصون العدو، حتى اشتدت الحمية، وهاجت الأضغان، وزحف جند الله إلى شمال الشام، وحاصروا (انطاكية) واستنقذوا أسراهم، وفيهم ضرار ابن الأزور.

ومن عجائب الصدف، وغرائب الأحداث أن ينجو ضرار من الأسر، بعد هذه المكابدات والمجاهدات، وتقع أخته (خولة) أسيرة مع بعض النسوة العربيات في أيدي الروم!! لقد ظفر الروم بغريمتهم (خولة) التي ملأت قلوبهم غيظاً وحقداً. ولكنها لا تهدأ ولا تلين. بل تقوم خطيبة في نسوتها:

● (يا بنات حمير، وبقايا تبع . . أترضين لأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن لهم عبيداً؟ إني أرى القتل أهون من هذا الأسر الذليل، وخدمة الروم اللئام!).

ثم أشارت خولة لنسوتها أن يأخذن أعمدة الخيام، وأوتاد الأطناب، ويحملن بها على عدوهن اللئيم. واستجابت النساء لدعوة خولة، وحملن الأعمدة والأوتاد وصحن صيحة واحدة، ثم هجمن هجمة سريعة، حتى استخلصن أنفسهن من ذل الأسر، وانطلقن فرحاتٍ فخورات ببطولتهن وحريتهن، وجهادهن الكريم.

إن خولة بنت الأزور . . تذكرنا بالخنساء أم الشهداء كما تذكرنا بصفية بنت عبد المطلب، عمة الرسول عليه الصلاة والسلام، حين أخذت بعمود خيمة، وضربت به رأس اليهودي الذي كان يدور حول خدرها، فقتلته.

لقد كانت (خولة بنت الأزور) نموذجاً رائعاً لوفاء الأخت لأخيها، وجهاد المرأة المسلمة في سبيل دينها، وغيرتها على أعراض العربيات المسلمات، وشرفهن الرفيع . .

يا لبطولة المسلمات في حماية العرض والشرف، وردّ الأذى والعدوان!!

الحاكمة الحازمة

(بلقيس) ملكة سبأ، التي أورد القرآن الكريم قصَّتها.. نستطيع أن نُلحقها بالنساء المسلمات اللاتي تحدثنا عنهن في الفصول السابقة، على أساس أن الإسلام دين الأنبياء جميعاً، وهذا ما يؤكِّده القرآن نفسه حين يقول: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ - وعلى اعتبار أن بلقيس قالت عند مقدمها على نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام: «وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين».

* * *

كانت بلقيس ابنةً لملك سبأ. وعندما تُوفِّي أبوها وثب ابن عمها على العرش، وتربَّع عليه، ولم يكن صالحاً ولا عادلاً. بل كان فاسقاً؛ فاستباح الأعراض، وهتك المحارم، واستغل سلطانه للعدوان على نساء سبأ أبكاراً وثيبات! حتى زيَّن له

شيطانه، وأغراه سلطانه أن يجرأ على ابنة عمه الملك السابق، الذي اغتصب عرشه، فيدعوها إلى ما لا ترضاه العفائف الطاهرات.

ولما كانت بلقيس ذات حكمة وذكاء ـ كما أشار القرآن إلى عقلها الرشيد ـ فقد تظاهرت بالاستجابة لرغبته، ودعته ليلاً إلى قصرها، وهي تنوي قتله واستنقاذ بلادها وشعبها من مظالمه ومفاسده.

وجاء المغفَّل إلى القصر متخفياً.. يحدِّث نفسه بسعادة غامرة سوف يجدها في لقائه مع بلقيس، وما درى أنه سعى إلى حمامه بأقدامه.. أو كما يقول المثل السائر: «بحث عن حتفه بظلفه»!.

* * *

لقد قالت بلقيس لشعب سبأ: (إنني فعلت ما فعلت لأني لم أجد فيكم رجلاً يغضب لشرف ابنته أو زوجته أو أخته. لقد قتلته لأنه دنَّس عرش أبي، وحاول أن يدنِّس شرف ابنته. وعليكم الآن أن تختاروا لكم ملكاً صالحاً يتولى أموركم)!

ولكن شعب اليمن أبى أن يولِّي ملكاً عليه إلا (بلقيس) التي فعلت ما عجز عن فعله الرجال، وخلَّصت البلاد والعباد من

مظالم الملك السابق ومفاسده. وتولت المرأة الراشدة مُلْك اليمن، وعاهدت شعبها أن تحكمه بالعدل والشورى، وقد أثبت القرآن الكريم هذا الخُلُق الرضيَّ لبلقيس.. فحين جاءها كتاب سليمان عليه السلام الذي ألقاه الهدهد بين يديها، وعن يمينها وشمالها وزراؤها ومستشاروها ـ قالت في أدب رائع:

● (يا أيها الملأ إني أُلقِي إليَّ كتابٌ كريم.. إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم: ألَّا تعلوا عليَّ وأتُوني مسلمين).

ثم أضافت بعد ذلك ـ تطلب مشورتهم ـ:

● (أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون).

هكذا تسألهم الرأي، وتؤكد أنها لا تقطع أمراً حتى يقولوا هم وجهة نظرهم فيه، كما وعدتهم يوم اختاروها ملكة عليهم.

وتأخذ العزة رجال بلقيس، وتغرهم قوتهم؛ فيردُّون عليها: (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد..) ولكنهم يتأدبون معها لما عرفوا من رجاحة عقلها وحرصها البالغ على مصلحة بلادها ورعيتها، فيضيفون: (.. والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين)!؟.

* * *

ثم يجري النقاش، وتتبادل معهم الرأي والمشورة، وتبدأ هي بتحذيرهم من اقتحام سليمان عليها مملكتها إن هي عصت أمره، ولم تُلبِّ دعوته إلى الإسلام، وتحدثهم عن عواقب الحرب بينه وبينها من فساد وتخريب وإذلال ـ ثم تقول لهم: إنها سوف تختبر سليمان عما إذا كان ملكاً عادياً، أم رسولاً نبياً تجب له الطاعة والولاء؟!

فلما جاء رسولها سليمان عليه السلام بهديتها الثمينة كان جوابه ـ كما أخبرنا القرآن الكريم ـ: ﴿قال أتمدونني بمالٍ؟ فما آتني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ ثم أنذرهم الحرب السريعة الخاطفة التي يستخدم فيها الجنَّ والإنس والطير والريح التي سخّرها الله له: ﴿ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾.

وهنا تتبين (بلقيس) أن سليمان نبيٌّ مرسل ـ إلى جانب كونه ملكاً ـ وأنه لا بد من الذهاب إليه، والدخول في طاعته ودينه..

ولكنه ـ قبل مقدمها عليه ـ وأثناء سيرها إليه.. أحضر عرشها من سبأ في طرفة عين: إعجازاً لها وإقناعاً بأنه نبيٌّ مرسل، له معجزاته التي سخّرها الله له.

وأقبلت بلقيس على سليمان في القدس، ووقفت تنظر مأخوذة مبهوتة إلى عرشها: كيف أحضر من سبأ في جنوب

الجزيرة العربية إلى فلسطين في شمالها؟! وسألها سليمان: ﴿أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو﴾ ولم تجزم بأنه عرشها حذراً من الكذب أو الخطأ.. وهو دليل آخر على عقلها الرشيد، وأدبها الرفيع. ثم اعترفت لربها عز وجل: ﴿رب إني ظلمت نفسي.. وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾!

* * *

لقد قدم القرآن (بلقيس) مثلاً مشرقاً للمرأة العفيفة العاقلة، والحاكمة الحازمة؛ وإن في قصتها لعبرةً وأسوةً للنساء الصالحات.

من إصدارات دار الرفاعي:

سلسلة المكتبة الصغيرة

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف
١ -	توثيق الارتباط بالتراث العربي	عبد العزيز الرفاعي
٢ -	جبل طارق والعرب	عبد العزيز الرفاعي
٣ -	خمسة أيام في ماليزيا	عبد العزيز الرفاعي
٤ -	كعب بن مالك	عبد العزيز الرفاعي
٥ -	أبو محمد البطال	د. يحيى محمود ساعاتي
٦ -	أم عمارة	عبد العزيز الرفاعي
٧ -	أبو دلف	د. محمد عبد المنعم خفاجي
٨ -	قصائد من مقبل العيسى	مقبل العيسى
٩ -	من عبد الحميد الكاتب	عبد العزيز الرفاعي
١٠ -	قريتي الخضراء	أحمد قنديل
١١ -	كرائم النساء	أحمد محمد جمال
١٢ -	الغزو الفكري	عبد الله عبد الجبار
١٣ -	بنو الأثير. الفرسان الثلاثة	محمد الحمدان
١٤ -	أطياف من الماضي	محمد عبد القادر فقيه
١٥ -	من أجل الشباب	أحمد محمد جمال
١٦ -	الحج في الأدب العربي	عبد العزيز الرفاعي
١٧ -	من أمهات الكتب	العوضي الوكيل
١٨ -	سوق عكاظ	علي حافظ
١٩ -	ضرار بن الأزور	عبد العزيز الرفاعي
٢٠ -	قاطع الطريق	أحمد قنديل
٢١ -	حمزة شحاتة	عزيز ضياء
٢٢ -	غناء وشجن	محمد سراج خراز
٢٣ -	ذكريات لا تنسى	غالب أبو الفرج
٢٤ -	خولة بنت الأزور	عبد العزيز الرفاعي
٢٥ -	رحلة في كتاب من التراث	عبد القدوس الأنصاري

رقم الكتاب	اسم الكتاب	المؤلف
٢٦ -	الحسن بن أسد الفارقي	هلال ناجي
٢٧ -	الإمام الشافعي	أحمد العربي
٢٨ -	أرطاة بن سهية	عبد العزيز الرفاعي
٢٩ -	مدائن صالح	محمد عبد الحميد مرداد
٣٠ -	ذكريات مدرس	عبد الرحمن صباغ
٣١ -	الشباب دراسات ولقاءات	أحمد محمد جمال
٣٢ -	فيلسوف	محمد حسن فقي
٣٣ -	إمام الصابرين أحمد بن حنبل	عبد العزيز المسند
٣٤ -	المتنبي والقرامطة	د. محمد محمد حسين
٣٥ -	الأعمش الظريف	أحمد الضبيب
٣٦ -	الأمير الشاعر تميم بن المعز	محمد عبد الغني حسن
٣٧ -	الوراقة والوراقون	لطف الله قاري
٣٨ -	أبو العلاء اللاهوري	د. ظهور أحمد أظهر
٣٩ -	وقفات مهمة في التاريخ الإفريقي	عبد الله حسن
٤٠ -	نجوم في آفاق العربية	د. عبده بدوي
٤١ -	لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل	د. علي عبد الله الدفاع
٤٢ -	القاضي عياض	عبد الله كنون
٤٣ -	الطير في الأدب العربي	أحمد سعيد أبو زبيد
٤٤ -	الهمزة، مشكلاتها وعلاجها	د. شوقي النجار
٤٥ -	حافظ إبراهيم	د. محمد بن سعد بن حسين
٤٦ -	عبد الله بن رواحة	د. محمد بن سعد الشويعر
٤٧ -	مذنب هالي	محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة
٤٨ -	مصادر علم الصيدلة	د. علي عبد الله الدفاع
٤٩ -	المزيد من رأيي المتواضع	د. غازي القصيبي
٥٠ -	من مراثي الحيوان في الشعر العربي	العوضي الوكيل
٥١ -	سليمان الدخيل	د. عبد الله الجبوري
٥٢ -	لو أبصرت ثلاثة أيام	هيلين كيلر - ترجمة د. عبد الهادي التازي

سيدتي

من أجلك أنتِ أصدرنا:
سلسلة الصحة والحياة

وقد نشر منها:

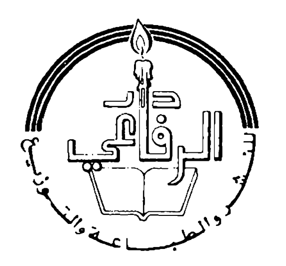
١ ـ الأمومة الرسالة الخالدة
من تأليف طبيب الولادة المختص
الدكتور: حسين شويل

٢ ـ طفلك مستقبلك
تأليف: إميل وشالوت لايتنر
ترجمة: بهية فرج الله كيولك

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

فسح من وزارة الإعلام برقم/ ٨٥٤/ م

تاريخ ٢٦/ ٣/ ١٣٩٤ - الرياض



* الكاتبُ وَالكتابُ *

● هذا الكتـاب يهدف إلى تقديم نماذج رائعة من فضليات النساء المسلمات، يقدمها المؤلف شواهد على حقيقة مكانة المرأة في الإسلام، وليكون في حياتهن قدوات مثلى للمرأة المسلمة، ومن خلال هذه النماذج ـ على قلتها ـ تتبين عظمة الإسلام الذي أعطى المرأة طمأنينتها واستقرارها النفسي.

● وقد طبع هذا الكتاب من قبل مرتين ووجد إقبالاً جيداً، وها هو يقدم للقارىء في حلة جديدة في طبعته الثالثة.

● أما المؤلف فهو الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ أحمد محمد جمال المعروف بجهاده الطويل، للمنافحة عن الإسلام، ورد الشبهات عنه، والذب عن حياضه.

● وقد جاءت ترجمة حياته في ظهر غلاف كتابه (الشبـاب دراسات ولقاءات) الصادر عن دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، برقم (٣١).

دَارالرفَاعِي للنَشروالطبَاعَةوالتَوزيع